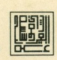
# براري الحمّى

إبْرَاهِيم نصرالله





مؤسّسة الأبحاث العربيّة ش.م.م.

برَاري الحُمّى




مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.

* إبراهيم نصرالله : **براري الحمى**
* الطبعة الأولى : ١٩٨٥

* الناشران: **مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م. ص.ب. ٥٠٥٧ ـ ١٣** (شوران)، بيروت ـ لبنان . هاتف: ٨١٠٠٥٥، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا ـ لبنان .
**دار الشروق للنشر والتوزيع**
ص.ب ٩٢٦٤٦٣، عمان ـ الأردن، هاتف: ٢٤٣٢١ .
* **تصميم الغلاف: شركة موشن للدعاية والتسويق .**

جنوباً . . جنوباً
حيث البحر الاحمر
وسمك القرش الأبيض
« والقنفذة »
جنوباً . . جنوباً
حيث طاولات المقاهي المتعبة
وأسراب الذباب الثقيل
كانت الشوارع تنتهي في جسد المدينةِ
الى الفراغ
والمياه المندفعة من أعالي « عسير » .
عبثاً تحاول الوصول الى الزرقة
جنوباً
جنوباً
كان الرجال يندفعونَ من الشمال
أو يعودون اليه
والحصاد الوحيد الذي يقطفهم
عزلة قاتلة
ومزيد من القهر .

يبدو أن أكثر من يد قد طرقتْ الباب . وأكاد أُقسم على ذلك ، لم يكن نومي غزلانيّاً ولا صحوتي أيضاً ، من هنا ، ومن هنا تماماً ، أعرف ان يداً واحدةً لم تكن كافية في يوم من الأيام ، لتعيدني إلى ذلك الصحو الذي يزرع صمته الشاحب فيَّ ، كلما آويتُ وكلما بُعثت .

حتى هـذه اللحظة ، لم يكن مـا يحدث في الخـارج يشـير الى انني قـد صحوت ، كما أنني لم أستطع ان أتأكد من وجودي في عالم اليقظة الكسول .

خمسة كانوا ، هذه هي الحقيقة الوحيدة ، خمسة بلا ملامح ، الظلمـة حالكة والمدى فراغ . صحراء تزحف باتجاه العتبة ، عتبة تستجمع حجارتها وقدميَّ ، محاولة أخيرة للبقاء في دائرة الخضرة .

ولكن ما الذي حدث ؟

مجرد أن قالوا لي أنني قد مُتُّ ، وان علي ان أدفع مئة ريال مساهمة مني في نفقات دفني ، أدركتُ ان مؤامرةً تحاك ضدي .

قالوا بصوت واحدٍ ، وكجـوقة تنشـد ، دون ان أجد فـرصة لالتقـاط كلماتي : ان تكون الميت ، فهذا لا يعفيك من ان تدفع ، ما دام المدرسون على إمتداد هذا البرِّ سيدفعون .

ثم احكموا الطوق حولي : طوال طوافنا هذه الليلة لم نصادف تقطيبة حادةً مثل تلك التي تحتل ملامحك ، كما اننا لم نسمع أية كلمة احتجاج .

ضاقت الحلقة ، قلتُ محاولاً التماسك : هذه حركة سمجة لن تمرَّ على رجل فطنٍ مثلي .

فضحكوا !!.

فكرتُ سريعاً ، باحثاً عن أسهل طريقة تعيد اليّ توازني ، غافلتهم وتحسست نبض يدي ، ثم زحفتْ أصابعي خلسة الى صدري ، كل شيء يسير على ما يرام ، قلبي ينبض وأوردتي تردد صدى دبيبه ، ولست أدري ما الذي دفع بطاحونة الحاج « أبو عزمي » الى مخيلتي ، بل الى طبلتي أذني بالتحديد .

بب. بب. بب.

سأكتفي بهذا الدليل الذي سيقطع السنتهم ، ولوحتُ بذراعي في وجوههم فَرِحاً

قلت : قلبي ما زال ينبض .

قالوا بصوت رجل واحد : هذا لا يعني أنك حي !.

وبسرعة تحسستُ ذاكرتي فوجدتها تعمل ، ولكي أطمئن أكثر ، انزلقتُ حتى وصلتُ الى ذلك النتوء المشاغب في أسفلها . ولهذا النتوء قصة أخرى ، أشد غرابةً من هذه الحادثة ، ولكنني أصارحكم وأقول انه رنةُ ضحكةٍ ، أجل رنة ضحكة ، ولن أضيف أية كلمة اخرى . وحتى لا تزداد حيرتكم سأقول إنها رنةُ ضحكةِ أخي الصغير نعمان .

ثم امتدت يدي فتحسستْ الهواء يخرج من فتحتي أنفي ، شهيقٌ ، زفيرٌ ، وكان بودي في تلك اللحظة ان أُطلق الهواء من كل فتحة في جسدي ، الاّ ان المؤامرة الزمتني الحفاظ على توازني المهيب ، وآدخار كل قوايَ ، فأي أثر للضعف سيتركني فريسةً لهم .

قلت ضاحكاً ـ وغالباً ما تنتابني مثل هذه الضحكة التي تقيم بين البكاء

واللامبالاة : كيف يمكن ان أكون ميتاً ، وأحدثكم في نفس الوقت كيف ، ها ؟

وعبثاً حاولتْ عيناي البحث عن ملامحهم ، وأنـا أدور حول نفسي ، وللحـظة أحسستُ أنني أفحمتهم الا انني لم أتأكـد من ذلك ، كـان الليل حالكاً ، وفناء البيت مفتوحاً على الصحـراء . لولا « عُشّـة » تنتصب بينهما كقبعة بهلوان .

تحركت رؤوسهم لتواجه بعضها البعض ، وقالوا بدهشة : الرجل لا يصدقنا ، وأقسموا يميناً غليظة انني قدْ مُتُّ بعد الغروب تماماً .

كـل ما في الأمر أنـك بخيل ، ولا تـريد أن تـدفع مئـة ريال ، قلهـا بصراحة .

فقلت : لن تنطلي .

فانفضوا من حولي ، وهتفوا معاً وهم يبتعدون :

ولكننا سنواصل جمع التبرعـات لدفنك !

ـ وكان هذا يتم كلما ابتلعت الصحراءُ أحد المدرسين ـ

كنت سأقول لهم انني أعفيهم من هذه المهمة ، لكنهم اختفوا ، من الليل جاؤوا واليه يعودون .

* *

وللحق ، فقد لعب الفأرُ في عبي .

هدرت محركات دراجاتهم ، أُضيئتْ أنوارها ، ففرت الثعالب ، وتململت دجاجتي البيضاء الرابضة على جذع يابس فوق باب الغرفـة يخرج من بـين صخور الجدار ويذهب في العتمة ، وتصفح الديكُ الضوءَ متعجباً ، ولكنه لم يطلق صياحه ، أما دجاجتي السوداء فلم تتحرك ، او انها تحركت فلم أستطع

ان ألمح ذلك .

وما ان ابتعدوا ، حتى انتابني الحزن فجأة عليّ ، كنتُ عارياً الا من خوفي ووحيداً حتى حدود الغياب ، فبدأتُ فصلا طويلا من البكاء ، وروعني خبرُ موتي حين يصل أخي نعمان ، على الرغم من عدائي لضحكته المشاغبة . ومن بين دمعتين قاطعتين تساءلت : ما الذي ستفعله أمي ؟! .

البحر بعيد ، ولكن ثمة موجة باردة تتأرجح على أرنبة أنفك ، تتدحرج بصمتٍ مُخلِّفةً وراءها مجرى واسعاً من الطنين المفرغ ، موجة باردة تتأرجح ، ثم تنفجر رذاذاً كثيفاً على وجهك : الهواء. الهواء . الهواء . الهواء .

وبحركة حادة مسحتَ فتحتي أنفك ، فعادتْ اصابعك محملة بالجمر .

ليلة واحدة تختصر كل تعب العمر ، تجمعه في جسد ثم تبعثره ، ليلة واحدة .

ليلة واحدة بين خطوة الظلمة الاولى وطلعة الفجر .

ليلة واحدة . ولكن الموجة تزحف ، تنتفضُ ، تتبعثر خلاياك ، فتغطي الجدران ، تدور كأنجم ضالة ، ثم ترتطم ثانيةً بحواف عظامك . تتجمع .

كل الاشياء التي تذكرها ، والتي لا تذكرها انقضتْ على جمجتك بأجنحتها السوداء ، ومخالبها الحادة ، وارتفعت حتى لامست السماء ، ثم عادت وانقضت من جديد .

انتشر ضوءٌ ساطع ، كما لو انه يطل من حلم غريب ، فتحتَ عينيك ، بامكانك ان تفتحهما ، اعتدلتَ في السرير ، كلّ شيء ثقيل ، الرأس ، اليد ، الظلال ، الاصابع والضوء .

وما بين انحناءة التعب التي دفعتْ رأسك الى الاسفل ، حانتْ منك

التفاتة الى السرير المقابل ، السرير الحديدي الآخر في طرف الغرفة ، أصابتك هزة عنيفة :

لا يمكن ان يكون الانسان مستطيلا بأربعة أضلاع !.

هكذا كان يبدو وهو راقد في السرير بلا حراك .

وخلال لحظة قصيرة محتشدة بالانفعالات والاسئلة والاخيلة ، انتزعتَ الغطاء عن جسدك ، وفي تلك المسافة ، تلك المساحة الصغيرة التي تفصل ما بين السريرين ، كنت تعدو كما لو أنك تعدو في صحراء .

الرمال تحت قدميك شوكيةٌ . . . حارة ، والمسافات التي تقطعها لا تلبث ان تترامى أمامك من جديد ، كأنك تركض مكانك .

تشبثت أصابعك بالغطاء ، لم تتردد لحظة ، لم يكن هناك ما يسمح بمثل هذا التردد ، الوقت موقوت مثل قنبلة على وشك الانفجار ، الدنيا ضيقة ، أو انها حُشرتْ في غرفة حجرية على طرف العالم . . .

طار الغطاء في الهواء ، ثم حط بعيداً قرب اكياس الذرة البيضاء خلف سريرك .

سؤالٌ واحد طرق الابوابَ كلها : أين ذهب ؟

كانت حقيبته قد استقرت في منتصف سريره . . سوداء . . تحولت احدى زواياها الى أوراق متفتحة ، منذ ذلك اليوم الذي أمضيتماه بين مدينتي جدة والقنفذة(*)، في صندوق سيارة الجيب، المحمّلة بالثلج . . والليل الطويل والغبار.

---

( * ) القنفذة : مدينة سعودية على شاطىء البحر الاحمر جنوب جدة . . وتبعد عنها ٦٠٠ كم . والقنفذة تمتد من ساحل البحر حتى جبال عسير . . ومن الشمال الى الجنوب اتساعاً لا يحدّ .

قلت : هـذه حركـة طفوليـة . . . وغير مقنعـة . . . فما دام يـرغب بالفرار، أو بالرحيل ، فليس من الضرورة أن ينسلّ بهذه الـطريقة ويضـع حقيبته في فراشه .

لاحت منك التفاتة . . . فأبصرت دفتر الاقامة . . الأخضر . . يحتل منتصف الطاولة .

قلت : لا يرحل ويترك دفتر الاقامة .

كنتَ في الليلة الماضية قد سمعت بعض ما دار من حديث على باب الغرفة ، ربما اعتقدتَ ان ذلك مجرد حلم ، وربما قلتَ : إن كان ثمة قضية فسيحلها .

ـ كان الأمر حقيقياً إذن ! .

قلبتَ الغـطاء . . الوسـادة . . ثم عبرتْ يـدك إلى مـلابسـه داخـل الحقيبة . . تشبثتْ بما أمسكتْ به . . استجابت الملابس ليدك . . خرجتْ بفوضى . . تبعثرتْ أوراق نقدية . . مئة ، مئتان . . ألف . وأسعدك أن الحيلة لم تنطلِ عليه . . فهو لم يدفع إذن .

بـالأمس قال لـك : ان لديـه ألف ريال . . مـا تبقى من راتب شهر نيسان .

تحسستَ جبينـك . . هـززتَ رأسـك بـأسى . . ارتفـاع في درجـة الحرارة . . عرق بارد . . .

استجمعتَ جمجمتك من حراب اللهب التي بدأت تغزوها ، صححتَ مسار ظنونك.

قلت : لعله أُختطف . . أو قُتل ! .

وتذكرتَ فاطمة : يا إلهي أية كارثة تلك التي ستحل بها ، حين تعلم

بموت طائرها .

ازداد تصبب العرق على جبينك منحدراً الى اسفل رقبتك . . . مخترقاً نظرة فزعة . . واسئلةً غامضة . . .

رأيتَ البـاب ، باب الغـرفة الحـديـدي ، وكـأنـك اكتشفتَ وجـوده مصادفة . . أنت الباحث عن نافذة مهما كانت صغيرة .

ركضتَ باتجاهه ، مسافـات أُخرى من الصحـراء لا تنتهي ، وكثبان متلاحقة من الرمال لا يخترقها البصر ارتمت بين خطواتك والعتبة . . أدرتَ المفتـاح . . لحظة واحـدة كنت فوق ذلـك الحجر الأبيض الكبيـر الذي استلقى أمـام الغرفـة منذ زمن ، حـدقتَ في الأُفق . . . في هذا الخليط العجيب من الليل والنهار . . من الحياة والموت . . وكصيادٍ في عمق البحر رحتَ تبحث بعينيك المحاصرتين بالفراغ عن حركة ما . . حياة ما . . أرض ما . .

لم يظهر في الأفق ما يشير إلى ان الدنيا تسير . . والعالم يتحـرك . وحدها كانت « القنفذة » بجبالها الجـرداء ، وجلدها الحجـري المتشقق تستلقي جثة متفسخة ، أغارت عليها الذئاب والثعالب والضبـاع ونهشتها الافاعي والليالي القاسية .

كانت الساعة تكمل دورتها لتعلن الثامنة . . .

تكورتْ الشمس محاولـة أن تصعد الجبـل . . الغرفـة في الظل . . والجبل عال . . لن تصل الشمس قبل الثامنة والنصف . . . وحين تصل سيكون العالم عرضة للظهيرة السابحة في حمم أيار .

خطوتَ باتجاه العتبة من جديد ، وحدها الصغيرة « معيضة » تملأ البر بصيـاحها وثغـاء اغنامهـا . خلعت البجامـة ، كانت معيضـة قـد تـوقفت هنالك ، مقابل الباب ، ومن خلال النافذة المشرعة شـاهدتَهـا تركض ، مطلقةً صياحها من جديد ، كأن شيئاً لم يحدث .

لبستَ بنطالك ، ثم خطرت لك فكرة .

سأرتـدي الدشداش . . . ذلك يجعل رئيس الشرطة يثق بي أكثر . .

اذن . . لا بد من ان تقطع البرَّ باتجاه سبت شمران ، باتجاه المخفر . . اختفاء انسان ما مسألة ليست سهلة هنا ، وقضية كهذه تجعلك وجبة للسياف بين ليلة وضحاها .

بدأتَ بتقريب دماغك ، لكي تكون مؤهلا لإجابات قاطعة لا يصلها الشك أبداً ، ولماذا يصلها الشك ما دمت ستقول الحقيقة كاملة ؟

كيف يمكن أن يختفي هكـذا . . دون أن يخلِّف وراءه كلمات بسيطة تساعدك في تتبع خطواته الى حيث مضى . . حاولتَ ان تستجمع ما سمعته في الليلة الماضية مرةً اخرى . . . ولكن عبثاً لم تعد قادراً على تصور ما حدث بعد ان طلبوا مئة ريال .

هل أغضبهم فاختطفوه . . ربما ـ هم مجانين ليأتوا لرجل حيٍّ ويطالبونه بأن يدفع مساهمته في نفقات دفنه . . لعله فرَّ ، ولعلهم اقتسموه فيما بينهم وفروا به بعيداً الى اقرب مقبرة في الجوار .

قلت لعلهم فعلوا ذلك . . وما ان هبطتَ الهضبة الصغيرة التي تقع في منتصف الدرب بين « ثُـرَيْبان » و « سبت شمـران » . . حتى بدأتَ بتسلق الهضبة الحجرية الاخرى باتجاه المقبرة .

كنت أشبه بمن يسعى لارتكاب جريمة . . تجولتَ بين القبور . . محاذراً أن تطأ قدماك أحدها ، لم يكن ثمة ما يشير الى أن أحد القبور قد حفر حديثاً ، لم يطل طوافك ، المقبرة صغيرة ولكن ذلك لا ينفي انها كانت ممتلئة بالموت حتى آخرها .

قلت : لعلهم مضوا به الى سبت شمران ، هنالك المقبرة أكبـر ، ولها سور ترابي يُحصِّنها ويحفظ حرمتها من أقدام العابرين على الرغم من انها المهبط

المفضل لرفوف الغربان .

وهناك توقفتَ في البداية . . تلفتًّ . . كانت سبت شمران شبه خالية . . والمقبرة تستلقي بجثتها على الطرف الجنوبي للقرية ، بكامل صمتها .

هذه كبيرة ، أدهشك ان يكون لقرية صغيرة مقبرة بهذا الحجم ، لقد كانت سبت شمران قرية . . وكانت مقبرتها مدينة . . مدينة كبيرة . . ابتلعت عشرات القرى عشرات السنوات التي مرت على سبت شمران .

واعتصرتك بألم فكرةُ ان المقابر تكبر . والقرى تضيق ! .

كان هناك العديد من القبور التي حفرت حديثاً . . والتي ارتفعت بتربتها الخضراء . . المبتلة . . على شكل قباب صغيرة لم تحرقها الشمس . . اقتربتَ ، ولكنها كانت قبوراً بلا اسماء، بلا شواهد. قرى واسعة بلا شواهد .

فكرتَ بالذهاب الى فاطمة، عدلتَ، وأخيراً، كان لا بد لك من ان تقطع المسافة بين المقبرة ومخفر الشرطة ، أية أسئلة يمكن ان تجد اجاباتها في هذه المسافة المحاصرة ؟ .

كنت تصعد الدرجات الحجرية بتثاقل . . فأربعة كيلو مترات ليست بمسافة قصيرة حين يكون كل حجر فيها معرَّضاً للهب شمس أيار وهكذا انبسط المخفر امامك .

القيت التحية .

لم يجب أحد.

ضابط . . هو رئيس المخفر . . وشرطيان . . وأربعة جدران من العري والملل واللزوجة واستلقاء يتأرجح بين الجمر المنتشر في الهواء . . والمقاعد الخشبية الطويلة ، كتلك التي تنتشر في المقاهي .

نظر اليك الضابط كأنك لست موجوداً . . وحكَّ أحد الشرطيين ساقه بشدة . . وأدار الآخر وجهه الى الحائط .

جلستَ .

ستطول ، تعرف أنها ستطول ، بعد لحظات فقدتَ الامل في أن يسألكَ أحد فقلتَ : صحوتُ هذا اليوم . . فلم أجد زميلي الذي يسكنُ معي في الغرفة ، وجدتُ الحقيبة . . أجل وجدتُ حقيبته في فراشهِ . . أما هو فلم أعثر له على أثر .

قال الضابط بينما كان يدير وجهه الى الحائط :

وبعد !! .

قلت : بالأمس كان مريضاً . . أجل . . أُصيب بالحمى عصر أمس ، لم تكن حالته خطرة . . لذلك لم أكن قلقاً عليه . . حتى جاؤوا بعد منتصف الليل وطلبوا منه ان يدفع مئة ريال مساهمة منه في نفقات دفنه ، ولكنه رفض ، عرفت ذلك اليوم حين عددت نقوده . تصوروا انهم يريدون منه مئة ريال ليدفنوه . وهذا الصباح لم أجده .

ـ من الذين جاؤوا ؟ .

ـ لست أدري . . لم أسمع سوى اصواتهم .

ـ ما اسم رفيقك ؟ .

لم تعرف من الذي سأل . . الشرطيّ أم الضابط . . وجهان للحائط . . وصوت مغروس بالخمول .

ـ اسمه محمد حماد .

تململ رئيس المخفر فوق المقعد الخشبيّ . . ولوَّح بقدميه العاريتين ، الا من شَعرٍ سلكيّ نافر . . ثم ألقى بقدمه اليمنى الى الارض .

ـ وما اسمك انت ؟ .

وهنا أدركتَ ان المشكلة ستتعقد . . وان أحداً لن يصدقك . . وأنك تهتز مثل ورقة توشك ان تنفصل عن غصنها وتهوي .

قلت : اسمي محمد حماد .

كادت تنطلي . . وللحظة تابع الرئيس أسئلته .

ـ لا اظنك تقيم في سبت شمران ؟ .

وقبل ان تجيب كان أحد الشرطيين . . ذلك الذي ما زال يحك ساقه قد اقترب من رئيسه هامساً : اه فهمت . . أجاب الرئيس ، ثم التفتَ اليكَ : ـ ولكن قل لي . . كيف تحملان نفس الاسم .

ـ لست ادري . . لا بد انها مصادفة يا سيدي .

وفي داخلك لعنتَ نفسك . . لقد كان معيباً لرجل مثلك ان يقول لرئيس مخفر متواضع في سبت شمران ـ يا سيدي .

عاد الضابط . . فعدَّل وضع جسده : لماذا لا تعود الينا بعد العصر ، أنت ترى ان لا شيء يستحق ان نتحرك من اجله الآن . .

عد الى البيت . . فلربما تجد رفيقك بانتظارك .

للحظة أسعدك ان يكون هناك أمل في ان تلقاه . . ولكن احساسك الحاد الذي بدأ يضج في صدرك . . جعلك تمتعض من هـذا الاسلوب الفج في التعامل معك .

انتصبتَ . . ودون ان تتفوه بكلمة . . اندفعتَ تشق صدر الظهيرة . . الذي يطوي البيوت ويبعثر الطرقات ويطارد المارين .

قلت : الآن عليّ أن أخبرها ، إن لها الحق في ان تعرف ما يحدث .

الغـرفة ليست بعيـدة ، ولكن النيران التي تفتـرش الـظلال وشـوارع الفوضى ، والحوانيت المغلقة بانتظار يوم السوق ، تربض متحجرة .

طرقت الباب ، لم يكن مغلقاً ، لحظات وإذ بها أمامك .

ـ من !! محمد ما الذي أتى بك في هذه الساعة؟ .

قلت وقد بدأ صوتك يتحشرج : الأستاذ محمد اختفى يا فاطمة :

ـ ما الذي تقوله يا محمد ؟

أقول ان الاستاذ محمد أختفى .

وجاء الصوت من الداخل واهناً، غارقاً في بقايا نوم الظهيرة : مع من تتحدثين يا فاطمة .

ـ انه محمـ . . .

وقبل أن تكمل جملتها ، كنت قد اختفيت ، اختفيت تماماً بعيداً عن دائرة الألم التي حاصرت فاطمة .

وتفجر خلفك أكثر من دمعة .

سبت شمران . . حجارة موزعة بين تلين من الصخور السوداء ، عندما تدخلها يفاجئك القسم الشرقي منها ، رابضاً في أعالي قمة مدججة بالقلاع القديمة ، موزعة في حجارة تلمع كالسكاكين ، تخترق صدور العصافير وزرقة السماء وقرص الشمس الباحث عن الظل بين البيوت سبت شمران سنة من الحزن والدم . . سنة من الموت .

احياناً يسرقكَ هذا الخراب ، ويوزعك في نـزيف الوقت البـطيء . . حزناً لا يمحي ، على الرغم من انك لا تميل للحزن ، هذا المخلوف الضامر . الذي أكلته كلُّ امراض العالم ، من الرشح حتى السرطان ، مروراً بـالسل والانفلونزا .

سبت شمران . . حاول الاستاذ محمد أن يجد امتداداً لهـا في روحه ، هكذا قال ذات مرة . .

حاول ان يجد لها افقاً في قلبه . . فعرف ان التنافر هو الصلة الوحيدة التي تربطه بها .

ها هي الآن تفتح صدرها الموحش . . نوافذها . . التي تهب منها الرياح الساخنة . . وتشرع شوارعها للصمت .

كلما مر بها غريب ، خيل اليه ان حرباً وقعت ، حصدتْ الحـركة ، وتركت الحجارة ، هي حرب غير معلنة بين دبيب الحياة ، وهدأة الجثث .

قرية لا تشبه القرى . . وتشبهنا حين توزعنا على غرف صغيرة بسقوف من عيدان الذرة ، بأبواب بلا اقفال . . وليال طويلة بلا ضوء ، تتركنا عرضة ليديها . . تستعيدنا من غفوتنا وبين أسنانها نسمع تهشم أضلاعنا ، تجترنا ثم تتركنا للحُمّى والوحدة القاتلة . هكذا كان يقول الأستاذ محمد .

سبت شمران القريةُ الأم التي ينطلق أبناؤ ها في الشعاب القاسية حاملين ضمورهم واسمها ، يبعثرون الظهيرة . باحثين عن طعام لمواشيهم ، وعلى أطرافها تنتشر أكثر القرى تصدعاً .

سبت شمران . . أيام حجرية في سهول حجرية تمتد مئات من الكيلو مترات .

ارتفعت الشمس . . كانت أشبه بصقر يقلِّب الأرضَ بعينيه الحادتين . . وكنتَ الكائن الوحيد الذي يملأ الشوارع بشتاته .

حدقتَ في وسط السماء ، انقضّ عليك الجمر ، ودار بك أكثر من نجم ساطع ، رفعتَ يدك تتقي اللهيب فباغتك اللهيب المتصاعد من جبهتك .

قلت : لن تكون الحُمّى ـ ثم أردفت ـ : ولماذا لا تكون الحمى ؟

ـ يكفي أن زميلي في الغرفة قد أُصيب بها . . الاّ أنه ليس هناك ضرورة ان أُصاب بها أيضاً .

أحزنك أن تكون المساحة التي تمنحه إياها هي الزمالة فقط . . انت تعرف انه كان اكثر من ذلك . أنت تعرف .

ـ هل تجرؤ على التحديق في داخلك ؟

ـ لا .

حدقت في الشمس ثانية . . اجتمعت جمرتان ، نارها وجبينك ، فأدركت ان الظهيرة تحمل ما لا تحبه .

ـ لعنة الله على ذلـك الشرطي . . أكـان يجب أن يخبر رئيسـه ، بأننـا نحمل نفس الاسم ، ولكن لا بأس .

وفجأة . . أصابتك هزة ، كانت كافية لان تُصدّع جسمك . . روحك ، وكان عليك ان تنفذ الى وجودك لكي تتأكد انك لم تقلها بصوت عال ، لم يسمعها أحد ، لم تثقب جلدك باتجاه الشوارع والناس فجأةً سألت :

ولكن كيف خرج من البيت . . لقد كان عليَّ ان أفتح الباب من الداخل هذا الصباح .

نعم ـ لقد ركضتُ . . قطعتُ الصحراءَ الصغيرةَ بين السريـر والباب وادرتُ المفتاح . . أجل بيدي هاتين أدرتُ المفتاح . . ثم خرجت .

حاولت ان تعثر على مخرج آخر يتسع لجسده . . بين جـدران الغرفـة الحجرية . لم تجد . .

استدرتَ . . تريد العودة الى المخفر . . تسمرتَ مكانك ، كان المخفر يقبع في الغابة النارية بصمت .

ولكـن ذلك الاكتشاف ضدي ، وليس ضد أحد آخر على سطح الكرة الارضية .

فاستدرتَ ثانية .

بين المخفر وساحة السوق . انتصبتْ سقيفةُ « حنش » تعرفها جيداً ، هي القرن ، وهي البيت .

ثم دكان الحاج « العاني » والحاج يملك من الدكاكين ما يصل سهول تهامة وجبالها بساحل البحر الاحمر .

صناديق خشبية . . علب عصير فارغة . آثار عرائس . . كل ما تبقى من سـوق السبت دارتْ الشمس ثانيـة . . دنتْ حتى لامست جسدك ، كنت

تخطو ، وكانت مصوبة بين كتفيك كبندقية خرطوش . . لم تستطع ان تسرع أكثر . . لم تستطع ان تتوقف .

قلت وقد بدأت اطرافك تنتفض :

ـ يا علي . . أين « ثريبان » يا عليّ؟

أشار الى الشمال . . وقال : هناك .

قلت : ألديك ماء ؟

قال : لا .

قلت : اعطني علبة ببسي كولا .

كرعتها ومضيتَ ، وما زالت قوارير الماء تلوح في رأسك . . وقد استقرت في أسفل ثلاجة الغاز . . حين أخرج علبة الببسي .

التفتَّ ثانية ، كان الصبيّ ينظر إليك بعينيه المشاغبتين . . قلت :

يا عليّ . . ولكنني أتيت من الشرق . . من هذا الاتجاه يا علي ! .

: يا استاذ . . أنا ابن المنطقة وأعرفها جيداً .

قلت : قد يخطىء الاستاذ ويصيب التلميذ .

لا شيء يتغير في هذه القرية . . هم دائماً يقولون ذلك . . حلمها يتجسد في شارع يأتي من مدينة جدة ، يعبرها . . يوصلها بقلب الحياة الصاخبة . . ومحطات البنزين المضاءة . قلت : يا أبا عليّ . . حين أقف واياك هنا . . فأين تكون ثريبان يا أبا علي ، فأشار الى الجنوب .

: هناك . . في أسفل الجبل يا استاذ .

قلت : ولكن عليّ أشار الى الشمال .

قال : يا لجهل الجهلة ، يا استاذ . . عليّ صغير ونحن أبناء المنطقة .

قلت : اذن أسير .

قال : اجلس يا استاذ . . لن تستطيع الوصول اليها الان .

قلت : أُحاول .

« ثُرَيْبان » . . هي القرية التي أُقيم فيها مع زميلي . مرة ثانية تقول زميلي . لا يوجد فيها من المدرسين غيرنا . لذلك ألقتنا هذه القرية على تلة تبعد اثنين من الكيلو مترات عنها ، ذلك يحفظ شرف القرية ، ويحفظنا أيضاً من فتنة نسائها التي لا تطاق .

قلت ، وقد خرج عليك من المسجد شيخ : يا شيخ . . أين تقع ثريبان ؟ .

قال : هناك يا ولدي .

وأشار الى الغرب !

حاولت ان تجمع الشمال والجنوب والغرب في رأسك . . فلم تجتمع . . مرت ساعتان . . وأنت تتصفح الجهات الأربع . . دون ان تسأل احداً عن موقع ثريبان . . كنت تخشى اذا ما سألت ان يقال لك انها هناك . . في الشرق . قرب ذلك النخيل ولم يكن بالطبع هنالك أي نخيل .

اطلقتَ عينيك تبحثان في المدى عن سحابة غبار ، هي الـوحيدة التي تنبىء عن وصول سيارة في هذه البراري ، لم تر شيئاً . . أحسست بتعب ينخر قدميك ويتنقل معك ، ملصقاً خطواتـك برؤ وس الحجـارة الحادة والـرمال المشتعلة .

جلستَ . .

كانت شجرة الدوم وحيدة . . وكنت وحيداً أيضاً . . انتشر ظلها . . ولكنه لم يكن قادراً على نشر الرطوبة في ذرات الرمل التي يفترشها .

اليوم هو يوم « عمارة » ، والسيارات العائدة منها . . ستقطع بر السبت باتجاه ثريبان . . في هذه الساعات تبدأ السيارات بمغادرة السوق . . مغادرة فوضى الثلاثاء التي تلتف بالضجة والاسعار .

في هذا البر الواسع . . تتنافر القرى . . كقطبي مغناطيسين متشابهين . . ولا يبقى هنالك ما يربطها غير أيام الاسبوع ـ أيام الاسواق .

السبت . . لسبت شمـران ، والاحـد « لنَمِـرهْ » والاثنـين «لسر بني المنتشر » والثلاثاء « لعمارة » والاربعـاء « لنخال » والخميس « للمخـواة » والجمعة لله . . « و « للسـواد » .

وفي الاسواق يلتقي الناس . . بين العرائش الصغيرة . . التي ما تلبث ان ترحل عند الظهيرة الى سوق اليوم التالي ، ويلتقون في ارتفاع سعر التمر

وانخفـاض سعر الجِّمـال ، وجرار السمن الخشبيـة وألـطِّيْبِ المتيبس فـوق رؤ وس النساء ، يلتقون في الالوان ، الأسودُ للعجائـز والاصفر والبـرتقالي للصبايا والابيض للرجال .

من بعيد كانت تتقدم ، سحابة من الغبار تدور كمارد أخـذته رقصـة مجنونة . . فتطاول حتى اختفى رأسه في السماء . . وما لبثت ان اقتربت . . أشرتَ فتوقفت ، ثم انقشعت بعد ان اجتازت شجرة الدوم . . فبدت سيارة الجيب واضحة .

كان « القَحِمْ » هذا المغني الصديق لسائقي الشاحنات وسيارات الجيب يطعنك بصوته . . بأغنيته التي عبثاً حاولت الـوصول الى فـك حروفهـا ، وللحظة خيل اليك ان مارد الغبار ما ارتفع الى هذا الحد لولا هذا الصوت حيث بـدت الرقصـة حقيقة . . وليست من صنـع هذه المخيلة التي يلفهـا الجمر .

واصل القحم غناء ه . . واصل اختراق المـدى واذنيك ، يتـوقف بين الجملة والجملة ، يسحب صوته للداخل حتى يصل الى مؤخرته مثل سهم وقوس ، ثم يطلقه من جديد محدثاً دوياً لا يوصف .

اكثر من مرة حاولت ان تستجمع الكلمات ، ولكنك لم تفلح . . لأن القحم كـان يعود ليسحب صـوته من جـديـد . . ولا يكـون بمقـدورك ان تلاحقه ، ـ بالطبع ـ حتى ربوته .

لم تكن تصاحبه أية آلة موسيقية . . وعراً كان . . لا تحتاج ان تسأل من أين أتى ، فهو من نسل الحجارة والغربان والصقور والذئاب الجائعة . . كلها تزاوجت . . فأنجبته .

خفض السائق صوت آلة التسجيل . . فكان باستطاعتك أن تسأل .

ـ هل تصل ثريبان؟

ـ طريقنا نحو السواد يا استاذ .

شكرته . . فعاد بأصابعه الى آلة التسجيل، فانطلق القحم، الذي يبدو انه كان يحاول الخروج من شريط التسجيل دون جدوى ، واندفع اليك . . الى الساحة الخالية . . الى ظل شجرة الدوم ، وعاد مارد الغبار الى رقصته من جديد .

من بعيد لمحتَ الشرطي ، أجل ، أحد الشرطيين ، وكما لو ان رياحاً حملته . . انتصب امامك مختصراً المسافة ، اقترب منك .

قال : إني القي القبض عليك . . وأشار بأصبعه اليك . . رافعاً يده كأنه يصوب مسدساً بين عينيك .

ـ لماذا ؟

ـ بتهمة قتل رفيقك حماد .

ـ وهل وجدتم جثته ؟ .

ـ لا . .

ـ هل وصلتم الى ثريان . بالطبع لم تصلوا .

ـ لا .

ـ ـ هل حققتم في الامر .

ـ لا . . ولكن كل الشبهات تدور حولك .

ـ لن تلصق بي هذه التهمة بكل هذا الهدوء .

انا لا الصقها بك ، لقد قتلته ، الرئيس يقول لا بد انك اخفيت جثة رفيقك .

ـ ولكن هذه تهمة خطيرة تنقلني الى الرفيق الأعلى .

ـ هذا لا يهمني .

اقترب الشرطي ، دخل دائرة الظل . . قلت :

وهل ستأخذني الآن الى المخفر ؟

قال : أجل .

فأطلقتَ ساقيك للريح : عليك أن تمسك بي اولاً .

وما ان ابتعدت قليلاً . . حتى ادركتَ صعوبة الجري . .

ـ هل كان من الضرورة ان أرتدي هـذا الدشـداش اللعين ، نـظرت خلفك . امسكتَ بطرف الثـوب ثم انطلقت تعـدو كحصان ، ممـا منحك شعوراً بأنك تركض الآن بسرعة أكبر .

ـ سيمسكُ بي جثة .

ولكن كل شيء تغير ، فما أن وصلت الى الطرف الغربي لسبت شمران ، حتى اكتشفت بأنك لست الشخص الوحيد الذي يركض . . كـانت هناك نساء يركضن أيضاً ، واطفال يتصايحون ، ورجال يطحنون الحجارة بأرجلهم الحافيات .

كـأن التلة الجنوبيـة انشقت وأخرجت كـل من فيهـا . . البيـوت . . البشر . . الشمس والغربان ، كأنها اطلقتهم مرة واحدة . وتساءلت .

: هل تريد الشرطة القبض علينا كلنا ؟!! .
ولكن الجموع توقفت ، فتواريتَ بهم وتوقفتَ .

قال الشيخ : أفسحوا الطريق ، فأفسحوا الطريق .

فرأيت بئراً . . لم تكن قد نسيته .

ـ من يستطيع النزول ؟ .
ـ ما الذي يحدث أولا . . أخبرونا ما الذي يحدث .

ـ عبد الله سقط في البئر . . كان يملأ خزان ماتور المياه بالبنزين . . سقط الجالون بالبنزين هبط ليأتي به ، فسكن .

كانت الماتورات توضع في منتصف الآبار ، قرب المياه ، وتمتد الأنابيب الى الأعـلى ، لتصب عادة في خـزانـات اسمنتيـة. قـال حنش الفـران : سأنزل .

أمسك طرف الوزرة بأسنانه ، خلع خفيه . . أمسك بالحجر الكبير في أعلى البئر . . ثم انزلق كثعبان حقيقي دون أي جهد .

نسيكَ الشرطي . .

انحبست الانفاس .

ـ ما الذي تراه يا حنش .

ـ لا شيء . لا أرى شيئاً .

ـ إبتعدوا عن باب البئر ـ صرخ الشيخ ـ ففرتْ عروقه واتسعت عيناه ـ

ـ ما الذي تراه يا حنش .

ـ لا أرى شيئاً . . هل أنتم متأكدون أن عبد الله في الداخل .

ـ صاحت زوجة عبد الله . . ولطمت أُمه خديها .

علا صوت الماء . . حركة خفيفة من حنش . . بعدها كان يسبح .

ـ هل وجدت شيئاً ؟

تخبط . . ضاق البئر . . إنفجر الصمتُ حاداً . .

لم يجب أحد .

سكنتْ الحركة ، وعاد الماء الى هدأته ، هبطَ الرعبُ فجأة على وجوه الرجال ، كتمت النسوة صراخهن . . وابتعد الاطفال .

ـ لماذا لا تجيب يا حنش .

دوى الصدى . . دوائر . . . ثم انطفأتْ تاركة الرعب يتغلغل حتى آخر نقطة من الدماء . . بشاربه الكث ، ولحيته التي انزلقت حتى اسفل وجهه ، وقامته الطويلة ، شق رئيس الشرطة الجمع ، كان ما يزال متأرجحاً بين التثاؤب واللزوجة ، الى تلك الدرجة التي أكدت لك انه لم يغادر مقعده منذ ان رأيته ، اقترب من باب البئر ، وما ان لمحه الشيخ حتى أمسكه من يده وسحبه باتجاه الظلمة القابعة في الاعماق ، طَفَتْ الحيرةُ على وجه الرئيس . . وتصبب عرق جارف غطى جسده .

ـ ما الذي ستفعله الان يا جابر ؟ عبد الله وحنش في الداخل .

ركز رئيس الشرطة عينيه في بورة العتمة . . طار بعض نعاسه . . ولكن ارتباكه اتسع أكثر ، وقبل ان يجيب ، علا صوت عبد الرحمن السمين : سأنزل ـ اربطوني بحبل .

انفرجت ملامح رئيس المخفر ، ثم عاد فلملمها ثانية . . فبدا وكأنه يتخبط في وعاء من القلق .

غالباً ما كان يقول لك الأستاذ محمد : يا أستاذ محمد منذ أن وطأتُ هذه الارض وخرج « المطوِّع » عليَّ بالعصا ، دافعاً إياي باتجاه المسجد ، لم أجد فرقاً بين الشيخ والشرطي .

ثقيلاً كان جسد عبد الرحمن . . أما روحه فخفيفة ، طيب ، يعرف كيف يبتسم . . ويعرف كيف يقتحم . شجاعاً كان .

في طرف الحبل تدلى . . ولو أُتيح له أن يرى جسده معلقاً في حالة غير هذه الحالة لضحك حتى تفجرت عروقه .

قليلاً . . قليلاً . .

الحبل ينزلق ، وعبد الرحمن يحاول التشبث بأطراف الصخور التي تبطن حلق البئر ، ناعمةً كانت ، زلقة كالصابون ، أما الاعشاب التي كانت تنمو بين الشقوق ، فانها أضعف من أن تحتمل ثقل الجسد الممعن في المجهول .

بعد لحظات كان عبد الرحمن يصرخ في داخل البئر . .

ـ لا أرى شيئاً .

ـ قال الشيخ . . أحضروا فانوساً ، وقبل ان يحضروه ، كان عبد الرحمن يغوص في الماء ، ليختفي بعيداً في قلب الظلام .

انزلوا الفانوس .

جحظت عينا رئيس الشرطة ، فُغِرَ فوه ببلادة واضحة .

صرخ الشيخ : انزلوا الفانوس بهدوء .

قليلا . . قليلاً . .

لحظات قصيرة ثم دوى انفجار .

أدبرت النسوة ، واهتز الرجال ، وازدادت مساحةُ الدهشة في أعين الاطفال . واختفى الشرطي بعيداً عن عيني رئيسه ، وعندما ارتفع عبد الرحمن الى السطح ثانية . . كان الرعب يرفع الماء ويرفعه . . مخترقاً جسدين متيبسين يطفوان على سطح الماء .

هو البنزين اذن . .

وعند ذلك فقط . . فقد عبد الرحمن توازنه . . ودخل دوامات التلاشي .

صرخ الشيخ : اسحبوا الحبل .

اطبقت الايادي عليه ، فبدأ يستجيب لنداء السواعد المرتجفة .

ثلاثة أسئلة صعبة . . ثلاث جثث متيبسة ، استقرت حول البئر ، تناثرتْ في الاعماق وتجمعتْ على السطح ، باحثة عن إجابات لم تكن ممكنة ، عن صفة تزاوج حالة الموت الصلبة وجالون البنزين ، حروق ، عاصفة من الفزع ، رحيل مفاجىء . . حاد . . انفاس متقطعة .

ـ ما زال عبد الله يتنفس .

صرخ احدهم . . فهللت زوجته ، وارتفع صياح زوجة عبد الرحمن واطفاله ، وانزوى حنش بعيداً منسياً « كعُشّته » ، التفت بجلده الأسود . . وارتفعت يده في الهواء ملوّحة كنداء مكسور لم يستجب له احد غير اخته « عَلْيَه » . . وحيدته «عَلْيَه».

كان البكاء يرتفع والبقية الباقية من سكان السبت ، التي لم تصل الى البئر

قد وصلت ، اندفاع باتجاه فم البئر ، باتجاه الحلقة المحاصرة بالخوف والموت ، الاصوات ترتفع وزوجة عبد الرحمن لم تعد وحدها . .

ما الذي كان بامكانه أن يغطي على كل هذه الاصوات . . غير إرتطامٍ مثل ذلك الذي حدث .

تطاير الرذاذ من جوف البئر . . مع التقاء جسدٍ بسطح الماء .

ـ من الذي سقط . سألت .

هل كنتَ الوحيد الذي سمع ، الوحيد الذي سأل ؟

لم يجب أحد .

صرختَ : هو محمد حماد . . وللحظة اكتشفت ان العودة بجالون البنزين مستحيلة .

إرتطام آخر .

ـ من الذي سقط ؟

قلت : هو . . هو

ارتطام آخر . . مئة . . الف .

ثم هوى جسدك ، مرَّ زمن طويل قبل أن يصل الى الجثث ، التي أُتخم بها البئر . قبل ان يصل الى الماء ، الى رائحة البنزين التي طردتْ الهواء ، وملأت الظلام بالموت .

أكثر من يد لوحت بك في البداية ، أمتد الحبل ، اخترقتَ طبقة الجثث . . . البنزين . . الماء . . . الرعب . . الموت . . احترق الهواء . . انتشرتْ رائحة البنزين . . وفجأة سُحبَ الحبل . . فأصبح بامكانك ان تستنشق هواءً آخر يشبه الحياة .

ولكنه من جديد هوى ، هذا الجسد الضامر . . وقبل ان تدخل دوامات الغيبوبة كنتَ تحلق في أعلى البئر .

لم تعرف كم من الزمن مضى وأنت موثق بالحبال ، متأرجح كالدمى ، ولكن القرى كلها كانت مشدودة الى تلك الحبال التي لا تُرى : البر . . البيوت . . الناس . . وكل الطيور القادمة من عذابات الشمال . .

صحوتَ .

قلت : ما زلتُ قادراً على الركض ، ما زال لدي بعض الهواء وقدمان ويوم آخر .

كان رئيس الشرطة يقترب من الشرطي . . ذلك الذي يلاحقك .

ـ هل امسكت به ؟
ـ لا .
ـ ولماذا أيها المعتوه ؟
ـ لقد رأيت ما الذي حدث .
ـ وأين هو . .

وقبل أن يشير اليك كنت تعدو ثانيةً مثل حصان خشبي ، دافعاً صدرك ، تاركاً رأسك يتحرك الى الامام والخلف ، وقدميك تحلقان . كنت تعدو وصورة الاستاذ محمد تحتل جمجمتك ، كما لو انك داخل إطارها ، دهاليزها . . ونهاياتها المجهولة .

أحياناً . . ونادراً ما كان يُحدِّثُكَ عن أشياء مرت به خلال حياته الطويلة ، ابتداءً من تخرجه ، بطالته ، مروراً بعمله في البناء ، وحكايته مع الاسمنت وقضبان الحديد الساخنة .

ولشد ما كان يثير دهشتك ، ان كثيراً من الحوادث التي مرت به ومرّ بها ، كنت تستشعر قربها منك ، حتى لتكاد أحياناً تقول له ، انك عشتها فعلا .

مرةً قلتَ له : « تخنتها » يا استاذ محمد . . ألم أقص عليك هذه الحكاية التي تقصها عليَّ الان ؟ يومها أقسم انـه لم يسمعها منـك . . ولكنك كنت متأكداً انها حصلت معك أنتَ وليس هو .

في تلك الظهيرة ، هذه الظهيرة الجمرية . . كانه يركض بجانبك . .

قلت : من الذي تطارده الشرطة الآن ؟

قال : انا .

قلت : بل أنا . . ولو توقفت لأمسكوا بي . . وتركوك تمضي .

قال : بل أنا .

( مشهد )

لم ينس أن ينظر الى الشارع قبل أن يُخرجَ جسده من الباب ، وعندما يتأكد ان لا شيء يوحي بالخطر ، ينطلق الى عمله .

منذ أن بدأ يعي حبات العرق فوق جبينه . . ومعنى الشمس المتكورة بين كتفيه بلهيبها ، كانت هذه العادة تلازمه .

توارتْ الشمس خلفَ غيمةٍ رماديةٍ عالية . . جمعَ طرفي معطفه الأسود ، إنطلق يدندن أُغنية شعبية . . قطعها فجأة بخاطرة : إن خير وسيلة للنجاة هي الهرب ! .

سمع أصواتاً مألوفة خلفَهُ . . بعد نبضة واحدة من قلبه الذي أخذ يخفق بشدةٍ من كعبيه حتى قمة رأسه ، كان قد عـرف هذه الاصـوات جيداً . . أسرعتْ خطواته تلقائياً . . ثم أسرعت أسرعت . . أطلق ساقيه للريح ، وراح يعدو كحصان خشبيّ !! .

دائماً كان يقول . . انه يحب ان يركض بهذه الطريقة !! .

اصوات مخالب تصطك بالشارع الضيق . وتذكر : خير وسيلة للنجاة

هي الهرب .

كان يركض بكل ما اعطاه الزمن من خوف . . وعندما حاول ان ينظر خلفه . . ليطمئن الى المسافة التي تفصله عن تلك المخالب . . انقض عليه أحد الكلاب وانتزع المعطف عن جسده .

البرودة الصباحية تتغلغل في اضلاعه ، لكنه لم يكن يحس بها . . كلب آخر قفز باتجاه جسده . . وانتزع القميص .

قال في نفسه : حتى هذا القميص !! .

البرودة تستقر في رئتيه .

كلب آخر يقفز باتجاه جسده ، باتجاه الكتلة الضامرة النازفة . كلب آخر . . آخر . . آخر . . آخر .

بعد ساعات من الهرب المتواصل استغرقتْ النهارَ كله ، اكتشف انه أصبح عارياً . . وانه ما زال يركض .

وعندما نظر خلفه بوجل ، كانت الكلاب قد اختفت .

عاد الى بيته في المساء ، قطرات المطر تحفر جسده بعنف . . وتنساب على وجهه ، تعبر عينيه . . ثم تتدحرج حتى أصابع قدميه .

الصمت ثقيل .

وانطلقت ضحكة بعثرت السكون بنعومة بريئةٍ ، تسمرتْ في أُذنيه .

- اين ملابسك؟
- لقد مزقتها الكلاب .
- كنت هارباً منها إذن .
- كيف عرفت ؟
- لو لم تهرب لما تبعتك . . ولما مزقت شيئاً .

وعـاد الصغير الى ضحكتـه طول ثمـانية أشهـر . . كان مـطارداً بهذه الضحكة ، ذلك النتوء الحاد في ذاكرته . . الذي يحول بينه وبين ان يلتقط انفاسه .

( ستار )

من جديد انطلق يركض ، ليلة مظلمة ، ومدى واسع لا يفضي إلاّ إلى الجنوب .

قال : أظنك كنت معي في تلك الليلة .

قلت : نعم .

ـ ركضنا سويةً . . عشرات المخالب ، ليل نهار ، ليل ، وفجأة انكشف النهار . . مسفراً عن صحراء واسعة . . وشمس لاهبة ، وفي اقاصي الشمال دوتْ ضحكة مبكية .

قلت : يا استاذ محمد . . ولكنني انا الذي كنتُ أركضُ . . وأنتَ الذي كنتَ تركض معي .

قال : بل انا الذي كنت أركض . . وانتَ الذي كنتَ تركض معي .

استطعتَ ان تضلل الشرطي ، أخيراً توقفتَ ، حـدقتَ في امتدادات الجهات حولـك ، دم يتدفق من القـدمين ، حـراب تشق الجسد ، مسـاء يغمرك .

قلت : اذا كانوا يريدون القبض عليّ . . فليقبضوا عليّ هنا . . في البيت وان أرادوا قطع رأسي ، فليكن صافياً ما أمكن .

بهدوء السحابة أستدرجُ النهرَ
والطيرَ
والبحرَ

أستدرجُ السنواتِ البعيدةَ
ما نسيته الطفولةُ في قسماتي
وأتلو صلاتي
وحيداً
وأصعدُ
ما بين أنْ أطرقَ البابَ
أو يطرقَ الحزن صوتيَ أهمسُ مرتبكاً :

ـ هل تأخرتُ . . لا
ثم أصعدُ
أبحث عن وردة لا أراها
وأستجمعُ الريحَ في خطوةٍ
خطوةٍ
خطوةٍ
ثم أرفع في الصمتِ هذي القدمْ
أطرق البابَ
لا صوتَ
أطرقهُ
ثم أدخلُ
ها كلّ شيءٍ على حالهِ
أبتسمْ
ألقي دمي في السريرِ
أحدِّقُ في السقفِ
بعضُ الخطى تذرعُ الرملَ
تدنو ! !
وتدنو ! !
فأهمسُ مرتبكاً

ـ هل تأخرتُ ؟
لكنهُ لا يجيب
هنا في الهواءِ
هنا
أو هنا يتنقلُ
لكنه لا يجيبُ
وتدنو الخطى
ثم تدنو
وتدنو
وينتشرُ الرملُ
يرتجُّ بين يديَّ الحديد
تنتفضُ الروحُ بين يديهِ
فأصرخُ مرتبكاً
أو أُحاولُ
لكن صوتي
بعيدٌ بعيد .

دقائق مبعثرة فقط ، ثم أرعد الجمر في عظامك ، ولم تعد تعي شيئاً .

الليل : شوارع . . وجوه . . ماعزٌ ورعاة ، أفاع تزحف باحثة عن نسمة رطبة ، وأضواء لم تشعل بعد ، حكايات لم تقل ، قامات ارتدت ظلالها ، ونجوم تستطيع أن تعدها الان بسهولة من خلال سقف الغرفة ، من خلال هذا الدوران الشاحب .

كان يجب عليك أن تتحسس رأسك حتى تتأكد أنه ما زال موجوداً ، لكنك لن تجد طريقة تتحسس بها يديك ، لتوقن أنك قد تحسست رأسك فعلاً .

هو الجمر يتقد ، تختلط الاسماء ، تختلط الشوارع ، تتقاطع ، ثم يعلو جسدك كشاهد قبر تغير عليه الريح فيلوذ بالجثث ، أنت لم تعد قادراً على ترتيب أي شيء ، هي الفوضى تشطر يومك . . حلمك ، وترفع جدرانها حولك ، يجب عليك أن تجد يديك الان ، قبل أن تهمَّ بالخروج من ثقب لا تراه ، يجب عليك ان تكون إصبعاً او ذراعاً ، كتفاً او ساقاً قبل ان تتخذ موقع الهجوم .

جدران ترتفع حتى تلامس قلب الظلمة ، جدران تنخفض . . شيئاً فشيئاً . . تختفي ، يبقى السقف ، مساحة شاسعة من رؤوس الحراب السود .

: أكان يجب أن يختفي هذا اللعين ، ويتركني للموت ، أكان يجب ان

يختفي .

كنت تود أن تنشق الارض وتبتلعك ، أجل . . الأرض هي الوحيدة القادرة على استيعاب هذا الدمار ، هذا الحريق المتبدد ، هذا الحضور الغائب ، هذا الوجود الذي لم يستطع ان يكون شيئاً ، أجل هي الارض وحدها . .

قلت : لعلها الارض انشقت وابتلعته . .

أرعبتك الفكرة : لماذا تتراجع الان . . هيا . . حدق فيها . . لن تمنعك العتمة الصلدة من أن تبصرها . . حدقْ . . نظرة واحدة . . واحدة فقط .

كم كان عليك ان تكون شجاعاً ، افتح عينيك . . انتشر في السقف اولا ، رائع . . لقد نجحتَ . . ما زلت تملك القدرة على ان تتحرك . . لا يهم . . ان كانت الحركة روح اليد او غربة الخطوة او نظرة مجهدة من العين لا يهم : أنتَ ما زلت على قيد الحياة . . أنتَ ما زلت على قيد الحياة .

حدقتَ في الارض ، في تلك المسافة المحاصرة بسريرين حديديين ، راعكَ ان تجد هوة تتسع وتتسع .

كنتَ تود الخروج من جسدك ، أن تخطو الخطوة الفاصلة ، ان تترك كل ما تحمله من جمر يهوي معك ، يهوي . . ثم تهوي . . ويهوي . . لتحلق في أعماق الارض ، مثلما يسبح رواد الفضاء في الأعالي .

: لو انه كان هنا . . لا استطيع ان أجزم انه الان ميتٌ ، أو خارج حدود الارض ، ولكنني حزين . . حزين فقط .

لتضربكَ الريح ، ولتحاصرك العزلة ، ولتطاردك الصحراء ، اذا لم تعد ، أنت تَعرف أيها اللعين ، انني أُحبكَ ، يجب ان تكون الان جزءاً مني ، يجب ان تكون بداخلي . أنا أيها الداخل ، خارج فقط . . تستطيع ان تدقَّ صدري ، تستطيع أن تشقه ، لن تجدكَ هناك ، وستجدني فارغاً كفخارة ،

عد اليّ ولنرحل معاً ، انتَ بحاجة إلي . . اعرف قد تعبر اكثر من حد ، اكثر من حاجز ، بلا هوية . . بلا اسم . . بلا اقامة ، تستطيع ، ولكن ستبكي كثيراً لان شرطياً قميئاً في ليلة ما . . لم يسألك عن اسمك . . لم يعرك اي اهتمام . . ستبكي لانك لا تستطيع أن تفرح بدوني .

أعدتَ رأسك للوسادة ، ركض البحر باتجاهك ، تأرجحتْ موجة فوق جبينك ، صوبتْ . . انفجرتْ موجة اخرى ، هل تستطيع السباحة في هذا البحر المملوء بأسماك القرش البيضاء ، التي تغير باسنانها ونعومتها ، فتنخر جسدك ، ثم تقيم فيه مملكة اللاوجود .

اركض . . أيها اللعين . .

: الى أين . . ينحسر البحر ، تسفر الصحراء عن ذئابها . . ثعالبها . . أفاعيها . . وليلها الطويل . . ثم تغير باتجاهك . .

ما الذي يستطيع أن يصد كل هذا الموت عن جبين طيب ، يجلله الصمت ، وتطوقه العزلة . . كم من الكثبان الرملية اللاهبة ، سوف تدفع عن امتدادك حتى تستطيع أن ترى السماء . لست أدري لماذا السماء بالذات . . ربما كان بودي أن أرى الارض . . الأرض فقط . . الأرض خضراء . . وفيها عصافير . . وأشجار ، وفيها غزلان وأرانب برية مراوغة ، فيها ذئاب. . افاع . . ثعالب . . وفيها بعض الفهود وبعض النمور ، ضباع . . أموات ينخرهم السل ، ويواصلون حياتهم . . فيها قتلة وفيها ثُريبان ، ولكن . . لا يهم أريد ان أرى الارض فهي جميلة . .

اتسعت الصحراء ، هي دائماً تزحف باتجاهنا ، ونحن نصرخ ، ثم نزحف باتجاهها ، نلتقي في تلك النقطة . تلك المسافة الحرجة التي يتحد فيها الخطان ، نرتطم ، ننظر حولنا، اذن نحن ما زلنا على قيد الحياة. .

ومن خلالنا تمر الصحراء ، كأننا كسرناها . . نحن الرماح . . أنا

رمح . . يركض البحر ثانية ، تتسع الصحراء أكثر . . أيهما ينكسر الان . . أيهما .

يقتربـان . . بينهما تقف ، تراقب بعينين طفلتين خبأتهما طويلا عن دورة السنوات ، يقترب البحر ، تقترب الصحراء ، يدوي ارتطامها . . يتفتت جسدك ، تصرخ . يمتلىء الفضاء بشظايا صرختك التي تتساقط على الارض غربـة . . وصمتاً . .

محاولة أخيرة . . يجب ان تستجمع جسدك ، تنـ . . تنهض . . تسقط من جديد . .

ترتكز على الطاولة ، تتمايل تحت وطأة ثقلك ، كم قلت لذلك اللعين ، ان لا يتركني خلفه ، أنا لا أُحب الوحدة ، لا أُحبها أبداً ، وقلتُ له : هذه الطاولة مسكونة بالنمل الابيض ، قلت له النمل الابيض يرعبني . . يأكل كل شيء دون أن نراه ، يقتل الاشياء حولنا ، دون ان نرى موتها ، يخلفها هكذا قاماتٍ فقط . . قامات تتداعى ، حين تتعرض لاية عاصفة ، قامات ورقية .

منذ زمن قلتُ له : النمل يزحف داخل أرجل الطاولة .

قال لي : لا عليك . . ابتعد برجليك عن تراب أرضية الغرفة . . هو لن يأكلك على أي حال

: لن يأكلني . . لماذا . . وهل الطاولة أشهى مني ؟! .

كان يجب عليك ان تضع يدك على شيء يسندك . . ظل أو حائط ، عصا او ذكرى ، كان يجب ان تنهض . . وضعتَ يدك في وسط الطاولة ، محاولة واحدة فقط . . وأخيرة ، يجب أن تتأكد أن الارض حولك خضراء ، وان النافذة تطل على أشجـار . . ووجوه قـد لا تحبها . . ولكنك تود ان تراها الان . . اجل تود ان تراها . . ثم ترجع الى سريرك ـ الموقد .

قدماك على الارض . . راحة يدك في وسط الطاولة ، لحظة . . تغوص

اصابعك في الطاولة التي تتهاوى . . الطاولة تحولت الى كثيب رمل . . صغير . . مراوغ . . لزج .

لا لن تحزن على ان الطاولة لن تشاركك بعد اليوم علبة السردين ، أو علبة الحمص . . . او رغيف الخبز . . لا لن تحزن .

: لتذهب الى الجحيم . . هي طاولة قبيحة ، ولا تصلح أبداً لي . ولا تصلح حتى لسرديني او لحمصي ، لا تصلح لشيء .

فجأة تنظر الى يدك . . ترتعد . . تتكسر . . تنتفض . . أصابعك مغروسة في كثيب من النمل الابيض ، الذي اخذ يتسلق ساعدك ، إنتفضْ . . لوِّحْ هذا الذراع بكل ما تملك من قوة ، حتى لو أدى ذلك الى انفصاله عن جسدك ، لن يتقدم هذا النمل اللعين ، هو يأكل قرى ، اجل يأكل قرى . . طاولات . . وسقوف ، ولكن لن يستطيع ان يأكل بشراً . . لن يستطيع .

فجأة يظهر أمامك ، يشير باصبعه الى كتل النمل التي تتسلق ذراعك ، يندفع في ضحكة مدوية : أكلك النمل أخيراً أيها الخشبة .

تقترب . تزداد قامته ارتفاعاً . تحاول ان تطبق باصابعك على عنقه . ولكنه يواصل ارتفاعه وتكتشف انك تقبض على ساقه .

يواصل ضحكته الصاعدة . تدفع ساقه . . تعود خطوتين الى الوراء لكي تراه . . يختفي تتلفت حولك . وحدك . أنت وحدك من جديد يتحرك رأسك بسرعة باتجاه الباب ، اصوات بعيدة تنشر دويها في الشعاب المحاصرة بالصخور السوداء والليل الحالك ، تقترب ، زمن طويل مرّ قبل ان تتوقف ، زمن هائل كل ثانية فيه الاف من النمل ، زمن لا تستطيع ان تحياه ، ولكنك متخم بتفاصيله ، متخم بظلاله الثقيلة .

طرقات على الباب . . باب يهتز . . عالم يهتز . . أرض الغرفة . .

الجدران الحجرية . . اكياس الذرة البيضاء ، لقد قلت للعم سعود ؟ حتى متى ستستعمل الغرفة مخزناً . . نحن الان نقيم فيها .

فقال : يا استاذ محمد ـ الغرفة كبيرة بحيث يمكن ان تكون ملعباً .

لست اذكر الان مع من كان يتحدث ، معي أنا . . أم مع محمد الاخر . . لست ادري .

هي واسعة . . ولو لا الحرام لأقسمت انها باتساع نصف المطار ، والمطار للخواجات ، والخواجات يبحثون عن المعادن في جبال عسير ، وجبال عسير مليئة بكل شيء ، وخالية منا ، ونحن مفرغون من كل شيء وممتلئون بها ، وهي مليئة بكل شيء وخالية منا . . ونحن . .

والمطار قطعة من الارض . . واسعة . . ضيقة . . رمال متحجرة . . وحجارة بيضاء على الجوانب . .

: لا عليك يا عم سعود ، ستبقى الاكياس هنا ، ليس في الغرفة فقط ، بل في قلوبنا أجل في قلوبنا ، خطوتَ ، خطوة أخرى . . نفضتَ يدك للمرة الاخيرة . . بحثت عن الكشاف . . لم تجده ، عن علبة الكبريت لم تجدها . . تجددت الطرقات .

قلت : من ؟

قالوا : نحن .

قلت : أنا قادم إذن .

لا بد انهم رجال الشرطة ، اعرف انهم يريدون رقبتي ، ولكن لماذا لم ينتظروا حتى الصباح فانا أريدها الليلة حتى انام ، أنا تعب وحزين . . حزين أيضاً .

قلت : سأرتدي الدشداش . . ربما جعلهم ذلك يحترمونني بعض

الشيء ، ثم تذكرت ان ذلك لم ينفع في المرة الاولى . . لعل الامر يحتاج الى الهرب .

خمسة وجوه بلا ملامح تجمعتْ حولك .

: نعم . . ماذا تريدون ؟

: هل غيرت رأيك بشأن المئة ريال . .

: أية مئة ريال ؟

: تلك التي طلبناها منك بالامس ، الا تريد ان تدفعها مساهمة منك في نفقات دفنك ؟

ضحكتُ طويلا . . أخيراً وجدتُ في نفسي القدرة على ان افعل شيئاً ، أجل ضحكت . . ثم ضحكت لكي أتأكد من انني ما زلت اعمل . . وان لا شيء فيَّ قد تعطل .

لملمت ضحكتي . . انتشر الصمت ، ثم افلتت الضحكة من جديد ، لم أستطع أن احتفظ بها أكثر من هذا الوقت ، إنه رقم قياسي في حبس ضحكة يجب ان تستمر مدى العمر .

: يبدو انك مبسوط هذه الليلة . . كأنك لم تمت .

قلت : ببساطة يا جماعة . . انتم اخطأتم الشخص الذي تريدون مقابلته .

: كيف؟

أنا لست هو ، انا لستُ زميلي الذي تحدثتم معه في الليلة الماضية .

انتشر الصمت من جديد . . اقتربوا . . تهامسوا . . ثم اطلقوا ضحكة جماعية متقنة . . هأ . . هأ . . هأ . . هأ .

لن تستطيع ان تضللنا ، أنت تبحث عن طريقة تقنعنا بها انك لست هو ، لكي لا تدفع ، أنت بخيل ، ونحن قلنا لك ذلـك بالامس ، الليلة عليك ان تدفع .

احكموا الطوق حولي : قلت أُقسم أنني لست هو .

قالوا : وأين هو . . هل هو في الداخل . .

قلت : لا .

قالوا : أيها الجثة المعتوهة ، ووجهوا ركلةً قوية موحدة الى اليتي .

قلت : اقسم انني لست هو .

قالوا : ما اسمك اذن ؟ .

قلت : محمد حماد . .

قالوا : واسمه ؟

وهنا اكتشفت انني اقع من جديد في شرك نصبته بيدي ، ولم أكن أرغب بالوقوع فيه .

قلت : هذه مؤامرة .

قالوا بحزن : ما اسمك ؟ فخرجت من بين اسنانهم مليئة بالغضب .

قلت : محمد

قالوا : محمد من ؟

قلتْ : محمد حماد .

قالوا : أمسكناك . . عليك ان تدفع اذن .

قلت : ولكنني لست هو .

قالوا : لا يهم . . لا يهم . . ما دمتَ قد مُتَّ فلا يهم . . ان تكون انتَ ، أو تكون هو ، نحن يهمنا ان تكون منصفاً وتساهم في عملية دفنك أسوة بالاخرين الذين دفعوا لنا ، وهم على قيد الحياة ، لكي تكون جنازتك لائقة برجل مثلك .

أعياني الامر . . فتساءلت

ـ أنا ميت ؟ .
ـ اجل أنت ميت .
ـ وتريدون مني مئة ريال ؟
ـ اجل نريد مئة .

قلت : وتبتعدون بعد ذلك .

ـ اجل
ـ لن اراكم ؟
ـ لن ترانا . . كيف سترانا أيها المعتوه ما دمت ميتاً كيف ؟
ـ اذن انتظروا .

كان الكثير من الجمر قد انطفأ تماماً ، وكان الكثير منه قد اتقد ، خطوة خطوتان ، السرير . . الحقيبة . . ثم عدتَ أدراجك ، ارتطمت بشيء ما . . ربما الطنجرة ، أجل . . هي ، أحسست بسائل لزج على ساقيك .

قلت : كل ما يحدث لي الان بسبب . . كم مرة قلتُ له ان يغسل طنجرة الطبخ ، فبقايا الملوخية في داخلها . . منذ اربعة ايام .

كان الوصول الى الباب أسهل ، اجل ثمة عتمة أقل تضيءُ الساحة ، ثمة عتمة أقل .

قلت : هذه لكم .

قالوا : بصوت واحد كعادتهم : الف ريال ؟! .

قلت : أجل الف ريال . . هي كل ما معي .

اذهبوا : وافعلوا ما شئتم .

اصطفوا ، وبأدب جم اقتربـوا مني ، صافحـوني واحداً واحـداً ، ثم عانقوني معاً ! .

ـ شكراً أيها الميت الطيب ، نستطيع ان نقول لك الان ان الجنازة ستكون لائقة برجل فطن مثلك .

احسست بالاهانة ، حين شعرت انهم قد يكونون يقصدون عكس ما يقولونه .

ـ وداعاً .
ـ وداعاً .

هـدرت محركـات دراجاتهم . . واضيئت انـوارها . . ففـرت الثعالب بعيونها اللامعة ، وتململت دجاجتي الطويلة البيضاء ، وتصفح الديك الضوءَ متعجباً ولكنه لم يطلق صياحه .

قلت : الحمد لله . . لقد تخلصت منهم ، وتخلصت من تركة الاستاذ محمد ، أظنهم ـ بل لا ـ لن يعـودوا أبداً ، سيـدفنونـه . . أجل سيجـدونه ويدفنونه .

وبهدوء تسللتُ الى فراشي دون أن يلحظ ذلك أحد ! . .

كم ليلة ستمر . . . قبل أن تنقضي هذه الليلة . . قبل أن تبزغ شمس حلم طيب ، قبل أن تعرف أين اختفى ذلك الشريك .

لست تدري الان لماذا يرقُّ قلبك له ، وكيف يرفرف بين عينيك كطائر حالم ، تستطيع أن تتأكد الان انه اختفى ، لو أنهم وجدوا جثته لما عادوا هذه الليلة ، تستطيع أن تلمس آثار خطواته في هواء الغرفة ، يدير المفتاح بصمت ، ثم يخرج متسللا على رؤ وس أصابعه . ولكن كيف . كيف ؟

ـ أكان عليه أن يقتلع الباب الحديدي ، ان يصرخ ملء الارض ، انني لم أعد أطيق شيئاً مما يحدث ، لم يعد الشجر يظللني ، لم يعد الظل يسكن هذا الدم الحار في ثنايا قلبي ، هل كان عليه ان يصعد قمة الجبل السوداء ويعلن العصيان .

هو يفتح الفضاء ، يعبر الزرقة ، طيباً يرحل ، مثلما أتى . .

تستطيع أن تتذكر الان وجهه بوضوح . . عينيه . . حزنه . . . في اللقاء الاول على هذا البساط اللاهب ، الذي عبثا حاولتما أن تجعلاه يطير بكما . . فطار احدكما .

حين تأملته أضفت حصتك من السنوات إلى ملامحه . . ثلاثون عاماً اخرى فبدوتما في عمر التعب الحقيقي الذي يسكنكما ، كانت المسافة بينكما لا

تعدو أكثر من كلمة واحدة تقال ، وكان كل منكما يـريد ان يقـولها ، هي الصحراء .

بعد قليل . . نفضتما الغبار الذي يغمر وجهيكما . . وحديثكما ، وما أن استعاد كل منكما بعض تفاصيل ملامحه . . حتى بدت الدنيا لا تخلو من الامل تماماً . .

. . لماذا اذن هذا الاصرار على الغياب المدوي ، وأنتَ . . أنتَ نفسك تغرق في الغياب الصامت ؟ لعله اقتلع الباب فعلاً ، لعله صعد قمة الجبل السوداء ، لعله فعل كل ذلك ، أنتَ لا تستطيع الان ان تتأكد مما حدث ، هو الوحيد الذي يعرف ، هو الوحيد الذي يدرك الفرق بين الغياب والحضور .

تستطيع الان أن تسأل : ما الذي فجر فيه كل هذا الرحيل . . لقد قلتَ له أكثر من مرة : نحن لا يلزمنا الكثير هنا !

فقال : يلزمنا روح طليقة ، يلزمنا ان نكون موجودين فعلا في الأماكن التي نسكنها ، ونحن هنا غـير موجـودين ، في أماكن ليست مـوجودة عـلى الاطلاق ! .

كنت تحمـل الكثير أثنـاء رحلتك بـاتجاه الجنـوب ، وفجـأة . . تختلط السواحل بحزنك ، والمدن بضياعك .

هي القنفذة اذن .
مدينة بلا بحر
والماء ملؤها
مدينة بلا أرض .
والرمل يغطي كل كائناتها.

تبحث فيها عن جيوبك ، فتجد أنك قد أضعتهـا ، وتبحث فيها عن نفسك ، فاذا بك قد أنفقتها كأنها الدنيا ! .

وكأنها الرصاصة تختصر الذكريات ،
في صورة غامضة . .

قد تسلّي نفسك بأن تضحك . . حين ترى الثلج الذي كنتم تفترشونه في سيارة الجيب ، يشحن من جدة حتى القنفذة ليباع بالكيلو .

كان السائق يطلق النجوم في السماء . . ويلاحقها بالسيارة . . وصوتُ مغنٍ . . أو ربما نائح يملأ الافق بصياحه ، كان عليه ان يصل القنفذة قبل اشتداد حرارة الشمس ، قبل ذوبان الثلج .

قد تسلي نفسك بأن تبكي ، ما الفرق ، حين يدخل المطوِّعُ ، يفتح باب الجامع بعد منتصف الليل وهو يصرخ . .

تستطيعون ان تناموا هناك على ساحل البحر . .

وهل ثمة ساحل لهذا البحر ؟!

ابن عبده سيدق رأسه في الارض . . ويصلي . . ثم يرفع عينيه . . يتصفحك ، يواصل الصلاة ، وحين تَهُمُّ بالخروج الى الحانوت الاخر ، يختصرها ويقض عليك بلطفه ، هو يعرف أنك تملك خمسة الاف ريال بدل سكن ، وهو يعرف أيضاً أنك لم تستلمها بعد . . فله عيونه في دائرة التعليم ، وربما شركاؤه . .

سرير معدني . . فِراش . . طنجرة . . بعض الصحون . . طباخة ، هذه لا بد منها ، عشرون علبة سردين ، عشر علب فاصوليا ، خمس علب فول ، خمس علب حمص ، المجموع الفا ريال .

كأنك تعدُّ العدة لرحلة في حوض الامازون ، أو في جبال الهملايا .

تلقي توقيعك في أسفل الصفحة ، سيستلم ابن عبده بدل السكن ، ثم يرسل اليك الباقي ، سيتأخر في الاتصال بك ، بالقدر الذي تستطيع أن تعيش خلاله بصبرك ، وحين ترسل له للمرة الخامسة ، لن ينسى أن يحسم خمسة

بالمئة من المبلغ . . اتعاب تحصيل !! .

كنت تحلم ان تمسك خمسة الاف ريال بيديك ، ولكن ذلك لن يكون ، كما ان الكثيرين لن يحتملوا ان تكون مالكاً لكل هذا المبلغ ، دون ان يجدوا السبيل ، لاقتطاع الفي ريال على الاقل .

ويعود ابن عبده ، ليكمل الصلاة التي اختصرها . . يعود . . ثانية لمراقبة باب الحانوت والوجوه الجديدة التي يغطيها الغبار .

جبال عسير بعيدة . . لا بحر فيها . . ولكن يقال بأنها تملك القليل من المياه ، القليل من الرطوبة ، القليل من الطيبة والقليل من الارض .

الارض . ما زلت تصرُّ على أن تكون تحت قدميك ، وهي اليوم الأُفق الوحيد الذي يطوقك بأشجار الدوم البرية والشوك والصبار والغربان والعقارب والقرود، هي تسكنك الان فلا تستطيع ان تخلعها، هي حرب طويلة غير معلنة ، بينك وبينها ، أيهما يدفن الاخر في داخله كي يواصل الحياة ، أنت الان لن تستطيع ، لن تستطيع وحدك .

اعرف أن الصلة بيني وبين الاستاذ محمد لم تتوثق ، أعرف . لكن الليالي الطوال التي اقتسمنا عتمتها بيننا ، قد زرعت فينا الكثير من الألفة .

لسبب ما . . كنت أرى الرعبَ يقفز الى عينيه كلما قَلَّتِ المسافةُ التي تفصلنا ، هل كان يخشاني الى هذا الحد ، لا اذكر انني أسأت اليه أبداً ، ربما كلمة واحدة قلتها ، لم تعد الحياة بعدها تسير كما كانت عليه في الأيام الاولى ، كلمة واحدة . . استطيع ان اذكرها الان :

قلتُ له : انني بدأت التعود .

لا . . بل قلتُ له انني في طريقي لأن آلف الاشياء التي تحيط بي هنا .

كل ما بيننا بدأ يميل الى الصمت بعد ذلك ، الكلام والظلام ، ذلك الطريق الذي كنا نقطعه معاً حتى المدرسة ، وكان يجب على الواحد منا أن

يصطدم بالاخر ، لكي يقول له : صباح الخير . . مساء الخير ، على الرغم من انه ليس هناك ما يوحي بالخير أبداً .

لا تستطيع ان تنكر الان ان حبال المودة لم تنقطع بينكما ، ولكن . . كنتما بحاجة الى حزن واحديوحدكمامن جديد أو فرح واحد .

هو طيب . . طيب مثلك ، ولكنك لم تكن قادراً على ترويض ذلك الطائر الذي يحلق في داخله وداخلك كان ممتلئاً به ، ولكنك ما كنت تصرّح أنك تحبه على أي حال . . ومهما كانت الظروف .

كان جسدك يأنس الوحشة ، وروحه تأنس طائرها أكثر فأكثر .

تستطيع الان ان تبكي غيابه ، أو تبكي حضورك ، ان تنادي ملء هذه البراري القفر . . ان ابتعد أكثر . بطيبة أجزائك المرتجفة ، ترى الان طيبته الدافئة . كل ما تتمناه ، الاّ يستطيع احد العثور عليه قبلك ، تصعد قمة الجبل . . ها انت تصعد ثم تصرخ :

« تخبا مليح . . أجاك الريح ! » .

تخبا مليح . . أجاك الريح

فتدوي الوديان ، وتدور العواصف في المغاور ، تقلب الحجر وتقلع الشجر ، ولا تجد شيئاً .

أنت لا تحب الرياح ، كما أنها ليست المرة الاولى التي يزلزلك فيها أزيزها .

تحدق الريحُ في القمةِ ، تلمحكَ هناك ، بعيداً قرب عتمة السماء ، ترتفع اليك بأجنحتها السرية ، بحرابها المسنونة .

تخبا مليح . . أجاك الريح

تتنبه . . يغمرك الخوف . . تهبط الطرف الاخر من الجبل ، تركض . .

تتابعك . . تتعثر . . تنهض ، تركض من جديد . . تقترب الحراب منك . . تسرع أكثر . . اكثر، تلامس قميصك الذي يلوح مثل راية ممزقة تدافع عن ساريتها ، وقد سقط كل الفرسان حولها . .

تقترب الريح . . تلامس جلدك ، يتفجر أكثرُ من جرح . . اركض .

ـ لن تستطيع الان ان تمسك به ، ما دامت تلاحقني ، يدوي الرعد، تنشق السماء ، تندفع المياه من قمم الجبال . . ينبجس السيل فجأة ، ممتلئاً ، كأن البحر هنا ، ولا يوجد ماء . . كأن الرمل هنا ولا توجد ارض . . أركض .

تفرُّ الاغنام الى المناطق المرتفعة ، ولا يبقى في المجرى غير الجمال ، وبعض الرعاة الذين يحاولون إنقاذها ، لا يبقى غير تلك القطع اللحمية الصغيرة من الجِمال التي تبحر حتى السواحل الطينية . .

لا احد يملك القدرة على ان يوقف اندفاعك ، لن تصلك الريح ، ولن يبلغك السيل ، ثم تصرخ ثانية :
تحيا مليح . . أجاك الريح . .

فتردد الجبال صرختك ملايين المرات .

رذاذ ناعم يتساقط على وجهك . . يسحُّ من جبهتك ، يسير عبر خطوطها الغائرة ، جداول صغيرة باتجاه رقبتك ، يسعدك كثيراً أن يستطيع الاستاذ محمد الافلات من هذه الدوامة ، يسعدك اكثر ان يعود ، يحزنك اكثر ان يعود !!.
هل بمقدورك ان تحيا منذ اليوم ، بدون طائرهِ . .

يقترب السيل ، وتدركك العاصفة . . ويلوح قميصك للمرة الاخيرة . . ربما ، يداهمك الموت ، وبصمت . . تلملم القنفذة جسمها . . كعادتها حين تهوي سيوف الرعد بالنار ، تختفي بعيداً في انحناءات وديانها . . وحجارتها السوداء ، تاركة أبناءها عرضة للهلاك .

لملمتِ آلـرياحُ اطـرافها ، جمعتْ رمـاحهـا ، ثم التجـأتْ إلى أقبيتهـا السرية ، في سفوح الجبـال ، تحت الصخور البركانية الكبيرة ، بين التلال ، تسلقَ جزء منها قمم عسير ، ورحل جزءٌ آخر باتجاه « بيشه » ، ولكن كانت ثمة موجات تعبر البر بين حين وآخر كطلقات طائشة .

هكذا . . لم يكن بوسعكَ ان تهدأ ، هي حالة قصوى من التوتر ، حالة من التأرجح على الخط الفاصل بين الغياب المفجع والموت الضيق .

لم يبق الكثير من الليل ، لكن العتمـة ، ما زالت تـطوف ، تـطفىء الذبالات الوحيدة . . وتوقد المزيد من الحرائق الهاذية .

جسد آخر يسقط ، يـرتفع المـاء رذاذاً دمويـاً يغطي وجهـك ، سقطة أخرى ، وتصرخ . . من الذي سقط ؟

ـ الاستاذ محمد؟ .

. .

إرتطم الجسد من جديد بنعومة الماء ، وبقايا البنزين ، تطايرت بقعٌ كبيرة من الدم . . لوحت الحجارة بلهيبها . . وأجلفت الشمسَ البعيدة ، من بين اضلاعك ألقى القلبُ نظرةَ على المدى ، كان فراغاً . . من المحزن حقاً ، ان الرياح هي الوحيدة القادرة على ان تملأه ، بحثت عن الشجر . . الناس . . عن البيوت الحجرية والعشش . . لم يكن هناك فسحة عامرة بالبشر ، لم تكن

غير تلك العشة التي انتصبت كقبعة بهلوان ، وحيدة ، فارغة تلعب لعبتها بلاروؤس ، تخترق الارضَ صاعدةً كخازوق ، مرّ بكثير من الكائنات ، واستقر أخيراً بين كتفي انسان ما ، رأيته مرة ثم اختفى .

لست تدري هل اختفى حقاً ، ام آنك كنت تكره ان تراه ، فلم تعده الى عينيك ، لم تعده الى مخيلتك ، حتى ولو كان حلماً . . لا الحلم جميل ، حتى ولو كان كابوسا . . لا . . الكابوس جميل .

لكنك كنتَ تود لمرة اخيرة فقط أن تحلم ، أن تتعرف على موطىء قدميك ، هل هو هذه الارض الصلبة ، الخالية من كل شيء . . الخالية منك ، أم هذا البرّ الشوكيّ الذي لا يليق به أُفق أو هواء كالكابوس .

يحزنك . . أعرف ان ذلك يحزنك . . أن تلوّح بيديك الان ، دون ان تلمح بشراً ، لملمْ يديك . . لست في البحر ، فالقطرات على جبينك محيط واسع متخم باللهب وبالثلج وبالزحف ، بالطيران ، بالموت ، وبالحياة ، بالحقيقة حين تسكن صورتين ، أجملهما طعنة الحمى . . او هوّة الهذيان .

من بعيد دوى بوق شاحنة . . هي الطريق الى جيزان ، الى نجران ، الى الجنوب ، ثم تبعتها الاف الشاحنات ، المحمّلة بالسُّلِّ والدقيق ، بفقر الدم وبقايا الصحف التي مر على صدورها اكثر من شهر .

دار صقر في الفضاء ، ثم انقض على الارض وكأنها عصفور ، إختطف من جسدها صدرّها وطار .

حلق في الاعالي ، وعاد لينقض من جديد .

لعبته تلك . . وهذا رعبنا ، حين يكون الجسد الانساني ، وحيداً كالروح المطاردة .

ـ يا عم سعود . . اهرب بيديك . . او إلقِ لهذا الصقر بما تحمله من لحم . . هو لن يتركك على أي حال . .

والصقور هنا . . دائماً هكذا . . لا تطلب إذناً . . كل ما يلزمها ان تلوح قطعة من اللحم في يد انسان ، أي انسان ، بعدها تكمل مهمتها . .

بجرأة تنقض . . جامعةً اجنحتها ، مصوِّبةً بدقة لا تخطىء ، واذا لم تكن قد رأيتها محلقةً ، فسيخيل اليك ان حجراً ما قد سقط من الفضاء ، ربما من أرض زحل . . أجل . . زحل بالتحديد .

بسهولة وبسرعة . . قبل ان تغزوك الدهشة يكون الصقر قد حقق ما يريد ، ثم ابتعد محلقاً بفرح ونشوة .

ويعود لينقض من جديد .

يا دكتور : الاقامة هنا ليست سهلة . .

والدكتور يعمل هنا أحد عشر شهراً ، أقساها أشهر الصيف ، حيث يغادر المدرسون ولا يبقى في هذه القرى المحترقة غير الصبار وأحمد لطفي .

ـ يا محمد : والذهاب الى ثريبان ليس سهلاً ، هنا تجد بعض الناس ، هناك تكون وحيداً ، هنا تستطيع ان تلوذ بظل أحد هذه البيوت ، وهناك ستكون الشمس هي الظل الوحيد ، هنا البريد ، اجل هنا البريد . . وهنا سوق السبت ، هنا مدرسون ، وهناك اللاشيء ، تستطيع أن تقيم هنا شهراً او شهرين حتى تفتح المدارس ، ولا تنسَ انه لا توجد مدرسة حتى الان في ثريبان .

لم تكن تدرك بعد فرح الدكتور بوجود مدرسين ، أو وجود بريد .

شهران كاملان بعثرا محاولتك في ان تكون ، كائناً طيباً ، يجب ، اجل يجب ، دائماً كان يخيل اليك ، انك طيب ، مُحب ، توحِّد المدن في دمك ، مثلما تتوج البشر .

سيارة الجيب تحمل الرسائل ، من اقاصي الشمال ، تغمرها بسبخة القنفذة . . ببحرها القاتل ، ثم تدفعها باتجاه سبت شمران ، نمرة ، نخال ،

بلحارث ، وعمارة .

ـ اليوم يصل البريد .
ـ هل وصل البريد ؟
ـ لا . . اليوم يصل البريد .
ـ هل تنتظر رسالة هامة ؟
ـ لا . . ولكنني انتظر البريد ، أظن ان رسالتي التي ارسلتها لم تصل بعد .
ـ وكيف تنتظر؟

ـ اجل كيف انتظر . . احياناً . . واحياناً هي كل حين هنا ، يخيل الي ، الحقيقة . . لستُ أدري . . هل يخيل اليَّ فعلا ام انني اعيش ذلك تماماً . . يخيل الي . . لا . . لا يخيل الي .

ولكن لم لا انتظر . . كل شي هنا ينتظر . . وكلكم تنتظرون . . تقتلون الأيام . . الاسابيع ، الشهور ، بيومين اليفين ، ممتلئين بالترقب ، فارغين من المفاجأة . . ان يجيء البريد . سيقترب « حركان الشمرانيّ » من القرية مطلقاً بوق سيارة الجيب ، يلقي بحزمة الرسائل ، تنقضون عليها . . تتمزق اطرافها بين الأيدي .

ـ هذه لك .
ـ هذه لي .
ـ هذه ليست لنا .
ـ هذه اخطأت . .
ـ هذه عادت للدكتور . .

يا دكتور . . ليس سهلاً البقاء هنا كل هذه السنوات ، لا تألف هذه الارض اكثر من ذلك لئلا تعود اليك كل رسائلك ، ثم يبتسم حركان الشمراني وهو يحتسي الشاي في الظل الصباحي لجدار غرفة الدكتور .

ـ لقد أحضرت لكم شيئاً تحبونه .

تنظرون في اعين بعضكم . . تترقبون ان يبوح بما يخبىء .

ـ لن اقول لكم .
ـ هل هو شي يوضع في كيس ؟
ـ آجل . .
ـ هل هو طعام ؟
ـ لا . .
ـ هل هو مصنوع من الورق والحبر والاخبار والصور . . والقرف ؟
ـ نعم . .
ـ هي الصحف إذن ! .

لم تكن تعلم من الذي كان يتحدث ، كان الصباح يملك قدرة الليل في اخفاء الملامح . . بسرعة تندفعون الى صندوق السيارة ، تخرجون ما به . .

بهدوء يا استاذ . . بهدوء . .

بعد لحظات تكون الصحف على الارض . . ملقاة ، بصورها . . بأخبارها . . وبعناوينها الباردة . يقف الاستاذ محمد محدقاً في الجريدة . . هنالك غزو لجنوب لبنان .

ـ لجنوب لبنان !!؟

ـ وكيف تسيرُ المعارك . .
ـ لقد انتهتْ
ـ كيف يمكن ان تكون انتهت . . وانت تقول ان هنالك غزواً لجنوب لبنان ؟

تاريخ صدور الصحيفة يقول انها انتهت ، لقد مرت ثلاثة أسابيع على صدورها .

ـ لا يهم . . اقرأ التفاصيل . .

ويقرأ . . يقرأ الاستاذ محمد . .

هكذا . . كل شيء هنا . . تصل الوردة . . ولكن بعد ان تذبل . . تصل الرسائل ولكن بعد ان تكون قد فقدت حرارتها في ليل الصحراء ، تصل الجثث . . ولكن بعد ان تكون قد تعفنت ، تصل الاخبار . . ولكن بعد ان تكون الحرب قد انتهت . .

ـ يا استاذ محمد . . هنالك عدد آخر من الجريدة ، عدد صدر خلال الاسبوع الماضي . .

: لم يعد ذلك مهماً .

ـ لماذا . .

لا احب قراءة الصحف . . انا عادة لا أحبها . .

من يومها . . تغيَّر الاستاذ محمد ، تغيَّرتَ أنت . .

ها انت الان تتذكر، كان بوده أنْ يقرأ صحيفة في يوم صدورها ، أجل هذه أمنية . .

يوم آخر يبدأ رحلته . . بثقل حاد . . وببطء خانق ، وها انت تضبط نفسك متلبساً بحساب اللحظات ، أيام طويلة اخرى ستمر ، أشواك كثيرة ستملأ البر ، والشمس ، الشمس ستترك أيلول في الارض جمراً لا ينطفىء الاّ بحلول منتصف الليل .

ما الذي يمكنه أن يطمئن هذا الهديل الحزين بعينيك ، من الذي يقول لك : ثمة فسحة دائماً في هذه الجدران .

قال الدكتور : ليس لدينا الاّ ان نذهب الى العمة صالحة . .

فكرتَ قليلا . . كان الوحيد الذي لا بد ان يكون معك هو الاستاذ

محمد ، انتما الان غير قادرين على مغادرة هذه الارض الملتهبة ، دون ان تكونا معاً . . على الرغم من ان الذي يجمعكما أضعف مما يمكن أن يجمع مخلوقين طيبين .

هي القنفذة ،
مدينة بلا بحر
والماء ملؤها
مدينة بلا ارض
والرمل يغطي كل كائناتها .

لم يعد هناك من أمل في ان تجد الارض ، حتى القليل منها ، والماء . . دائماً يكون سيلا مدمراً ، يخلّف الجبال عارية الا من صخورها الكبيرة ، ويخلّف الوديانَ وحيدةً ، بلا كائنات .

هي القنفذة . . طعنة كفيلة بأن تشطر الانسان شطرين ، فكيف يمكن ان تجعل منها شيئاً ما يشبه الروح . . يشبه اللقاء . .

قال الدكتور : ليس أمامنا الا أن نذهب الى العمة صالحة ، لم تسأل من هي العمة صالحة ، تبعت الدكتور حتى طرف القرية حيث يمر الشارعُ الترابيّ الذي يخترق السهول الى جيزان ، وحيث النسور تهبط مثل طائرات الجامبو ، ثم تركض . . تركض تدفع الارض برجليها ، وتقلع مثل طائرات الجامبو أيضاً .

على الكرسي الخشبي الطويل ، المصنوع من القش ، كانت تتمدد في الظل ، الظهيرة تطوف محاولة نهش أحد اطراف جسدها بلا حماس ، فتدفع كرسيها الى الداخل .

العمة صالحة . . هي عمة على أي حال ، قد لا تكون عمتي ، ولكنها عمة انسان ما ، لا بأس ، العمة صالحة . . سبعون عاماً . . وسرير من الخشب ، ثياب يتراقص فيها اكثر من لون شاب ، وملامح قاسية ، خطوات

الزمن واضحة ، دائماً تترك آثارها ـ ودائماً ـ نحن الذين لا نعرف متابعة الاثر ـ نكون قادرين على تتبعها .

في داخل العريشة الخشبية الواسعة ، إنتشر سائقو الشاحنات بسيقانهم المغبرة ، بنومهم وصحوهم ، يشربون الشاي ، ويدخنون النرجيلة ، مقهى اذن . .

لا . . هو مقهى واستراحة وفندق مفتوح على قسوة الدنيا والعواصف الرملية .

سالمة تدور بينهم بجمالها المركب ، من سواد البشرة ، وتناسق القسمات ، أنف صغير ، فم صغير ، قامة طويلة ، فستان أصفر ، زنجية نموذجية ، تخطو بين الكراسي ، وتعابث أكثر من سائق .

سالمة ـ تدور ثم تنقض . . تماماً كالصقور . . الحياة قاسية هنا يا استاذ وكل يحاول ان يمسك بشيء يبقيه في دائرتها . .

اعتدلتْ العمة صالحة ، كانت اشبه بامرأة تبزغ في الحلم فجأة ، فيتعثر النائم بأجزائه .

واصلتْ سحبَ نفسٍ طويل من نرجيلتها .

ـ يا عمة صالحة : الاستاذ جديد هنا . . ونريد غرفة له . . لشهرين او ثلاثة .

كنت اريد ان يقول الدكتور بأن الغرفة لنا الاثنين ، لي وللاستاذ محمد ، ولكن ذلك لم يعد يهم كثيراً وأنا اترقب الرد .

ـ يا دكتور . . لم أعد أؤجر أياً من الغرف التي لدي . .
ـ ولكنه لن يمكث هنا أكثر من شهرين ، وهو هنا من أجلكم . .
ـ اذهبوا وابحثوا عن غرفة لدى أبي علي .
ـ يا عمة صالحة انت تعرفين . . ان كل الغرف قد تم تأجيرها . .

ـ كيف يا دكتور . . لم يحضر من المدرسين أحد حتى الآن . .

ـ احمد لطفي أستأجر كل الغرف الموجودة في القرية .

ـ ولماذا . . هل لديه عشرون أسرة .

ـ لا . . ولكنه يريد ان يؤجرها بسعرٍ مرتفع أكثر .

ـ اذن . . اذهبوا واستأجروا غرفة منه .

ـ يا عمة صالحة : هو يريد ان يؤجر غرفَةً طيلة العام ، والاستاذ ، يريد ان يسكن هنا لمدة شهرين ، بعدها سيذهب الى ثريبان .

ـ يا دكتور . . انتَ عزيزٌ عليّ . . ولكني . .

ـ شهر . . او شهرين فقط . .

دار الصقر ثم انقضّ . . اختطف الظل ثم حلّقَ عالياً .

لم تعد الأرض أكثر من قطعة عظم ، نهشت الصقور لحمها ، وأكملت الذئاب والثعالب والضباع قضقضتها ، لم يبق غير الحجـارة . . لم يبق غير الشوك . .

تصفحتْ العمة صالحة هيأتك . . ما آسمك . .

: محمد

: اللهم صلِّ عليه ، ستقيم هنا شهرين ، من أجل الدكتور سأوافق ، ولكن ستدفع مئتي ريال كل شهر .

قلت : موافق . .

وقال الدكتور : مبروك ، فبعد قليل ستغادر غرفته ، ويعود لينسق حياته المبعثرة من جديد ، يستقبل مرضاه في الليل ، دون ان يكون هنالك سبب للاعتذار اليك بسبب انتظارك في الخارج كل مرة .

حلّقَ الصقرُ بعيداً . . ارتفعَ . . ثم دخل في قرص الشمس ، لم تعد قادراً على متابعته ، اختفى . . وعادت عيناك ممتلئتين بالحرائق .

ولكن لي شرطا واحدا . . ان تحافظ على نظافة الغرفة . لقد كان الاستاذ وليد سبباً في نصف شيبي هذا ، لم يكنس الغرفة خمسة اعوام كاملة ، مما كان يجعلني دائماً اقوم بتنظيفها .

واضافت : ولا اريد سماع صوت الراديو ابداً .

قلت : لك ان تطمئني من هذه الناحية ، فلا يوجد لدي راديو ـ علماً بأن سمعها خفيف ، وهذا ما اكتشفته فيها بعد ، وان صوت ـ حتى ـ القحم لم يكن يزعجها .

قالت : اذن اسرعوا قبل ان تشتد حرارة الشمس . .

ضحكتَ . . وكانتْ تلك ضحكتك الاولى ، فأحزنك ان تبدأ عامك بمثلها .

قلت : وهل تركتْ الشمسُ حجراً لم توقده ؟

عندما بدأت الشمس رحلتها باتجاه قمم سلسلة الجبال الغربية ، كان الكثير من الوقت قد مرّ عليك ، وقد بدأتَ تتحسس رحيل اللحظات ، ستة أيام كاملة ، حاولتَ التعرف على التفاصيل الصغيرة التي يغطيها الغبار ، التي تصهرها الشمس ، حاولتَ استعادتها ، فبدأ كل شيء وكأنه يسبح في حلم غامض ، وبدت الأيام الستة أطول من قامتك بكثير ، استندت على رؤ وس أصابع قدميك ، امتدت يدك لتدفع الزمنّ المحترق خارجَ حدود السماء ، ولكنك لم تلمس غير رؤوس أصابع كفيك . أعدتَ الكرةَ ثانيةً ، عبثاً تذهب محاولتك ، يتدفق حزن مكسور من نبضات ذراعك الذي تتوسده . . يتخلل جسدك . . وفي عمق القلب ينتفض طائرٌ بلا أجنحة .

جمعتَ راسكَ الذي بدأ يتبعثر ، جمعته براحتيك الى تلك الدرجة التي بدأ عصير عظام جمجمتك يتدفق عرقاً حاراً على ساعديك .

قلت : يا محمد . . تذكّرْ ما قاله الدكتور . .

ـ وماذا قال ؟

قلت : ان افضل وسيلة لقتل الوقت هنا هي النوم ، اذا لم تستطع ان تقتل الوقت سيقتلك . . هكذا قال . .

ضحكَ الاستاذ محمد . . ضحكَ . . ثم أحسّ بخيطٍ من الدم يندفع من عنقه صرختَ : لماذا كنت تصر على ان تبقى بكامل صحوك . . لماذا ؟

وهكذا . . ارتحلتَ باتجاه إغفاءة لم تتم . . وقد بداتْ الذكريات الغزيرة تندفع لتغطي أرض الغرفة الرملية ، بطبقة حارة من الاحساس بالعزلة .

استندتَ على قدميك بصعوبة ، نفضتَ رأسكَ بحركة عنيفةٍ ، اشياء كثيرة تساقطتْ ، كل الاشياء الجافة ، بدأت عيدان الحزن تتمايل ، وهناك في أقصى القلب . . إرتعشتْ ايام بعيدة . . وبدأتْ سنةٌ كاملة ، تزحف باتجاه أعضائك .

تـدلى الصمتُ من سقف الغـرفـة ، الى منتصفهـا تمـامـاً ، دارَ حتى اكتمل . . بدأ صفيره ـ الذي ما لبث ان تصاعد ـ محتملاً في أول الامـر ، ولكن ذلك لم يدم طويلا . . الصمتُ صحراء واسعة واسعة . . وكان عليك ان تخترقها قبل ان يداهمك الموتُ عطشاً . . أو عزلةً .

الجدران . . الخفافيش . . عصافير الصعو . . القرود . . الصقور . . ودبيب النمل الابيض . . كلها اختلطت دفعة واحدة . . في جسد الصمت الهلامي .

عبـر الغـرفـة صـوتٌ حـاد ، ابتلع الهـواء . . السقف . . ارتجفتَ ، الصحراء واسعة ، وانتَ أعزل . . مطاردٌ . . الى أين تستطيع الوصول قبل ان يبلغكَ الموت ، جبينك يحترق . . أطرافك . والبعوضة . . هي صغيرة على أي حال ، ولكن لماذا كبرت لتصبح بهذا الحجم . . بحجم الصحراء .

القيتَ رأسك بين قدميك . . ذراعيك حول ركبتيك . . هبتْ ريحٌ . . غطتْ على صوت البعوضة . . ثم بدأتَ تتدحرجُ أمامها كنتشة يابسة .

لم يكن أمامك وقت لتلتفت خلفك أو فوق رأسك ، لترى أية اجنحة تلك التي تملأ الافق بمداهـا كان عليـك ان تختبىء بين الـرمال ، إمتـدت اصابعكَ تحفرُ ، اختلطَ العرق بالرمل ، فكان الطين ، فتشت عن خلاياك ، لم تجد منفذاً بقي خارجك من أيدي الموت المتقـدم ، تسمع صـوتاً مـا . .

اليفاً . . ولكنه بعيد . . بعيد كالطفولة ، من بين ركبتيك تنظر ، تلمحُ رجلاً يحرث العزلةَ بحضورهِ المتعب .

إنه أبو محمد

كيف يمكن لرجل بهذه الطيبة ، أن يقيم في هذه الوحشة ؟

الصحراء واسعة ، وأبو محمد يطلق محراثه بأجنحته الحديدية ، ويتركها تحلّقُ في عمق البر .

ما الذي تستطيع أن تزرعه في هذه الأرض يا أبا محمد . . ما الذي تستطيع أن تزرعه ؟

لست تدري الان كيف التقيتها أول الأمر ، ظاهرة نسيان الوجوه ، وهروب الزمن ، تسكنك بقسوة يوماً بعد يوم ، كأنك تعيش ، وكأنك ميتٌ في نفس الوقت ، كأنك ميتٌ ، وكأنك تعيش بين الكابوس والصحو الاكثر قسوة تقيم ، تقيم مملكة اللاوجود ، وحكايات أوشكت أن تقال ، عمراً اوشك ان ينحلَّ ، موتاً أوشك ان يصبح عمراً لكل شيء هنا ، من النملة البيضاء ، حتى قمم عسير .

لست تدري الان كيف التقيتها للمرة الاولى ، لست تدري بالتحديد أين ، ربما في تلك الساعة المشؤومة التي خرجتْ من قلب الظهيرة كفوهة بركان ، كان يصرخ . . يصرخ بكل ما أوتي من قوة ، وبجسده النحيل كان يحاول كسر الطوق الذي يلتف حوله . . سواعدَ . . وكلماتٍ تطالبه بضبط اعصابه ، إذن . . تلك هي اللحظة ربما ، كان احمد لطفي على بعد مترين من الاصابع التي تُبسط بعصبية محاولة قصف رقبته . . بين الاصابع التي تتجمع محاولة أن تنفجر ، واحمد لطفي يتكىء على الجدار الحجري ، محتشداً بالسخرية . . محتشداً بالصقيع : لو ان يديَّ تستطيع الوصول اليكَ فقط . . لكنتُ قصفتُ رقبتك . . بل سأقذف بك الى هذه الغربان .

إبتسم احمد لطفي من جديد :

اذا أردتَ البيت ، عليك ان تدفع مئتين وخمسين ريالاً كل شهر ، بدون ذلك لن تستطيع ان تخطو لتعبر عتبته .

اما فاطمة . . فقد انزوت في بيت أبي عبد الرحمن . . بكتْ . . همت بالخروج . . ولكن اكثر من يد أمسكت بها . .

ـ لا تستطيعين الخروج يا بُنيتي . . الرجال يحلّون هذه المشكلة، لقد قلتُ لأبي عبد الرحمن لا تؤجر هذه الغرفة لأحد ، قلت له ذلك ، ولكنه كان خائفاً من ان تذهبوا هذا العام الى قرية أخرى ، لم يكن باليد حيلة ، فأنت تعرفين ان ما يأتي من ايجارها يحل لنا الكثير من مشاكلنا .

اما أحمد لطفي فقد كان يستند الى الجدار ، وأي جدار ذلك الذي يبقيه دائماً منتصباً هكذا ، ربما لو كان أحـد غيره قد فعل ما فعله في هذا البر لهبطتْ كلُ صواعق العالم فوق جمجمته .

أحمد لطفي من أين جاء ؟ ـ الكل يعرف ، ولكن ما هي قصته وما هذا الجدار الذي يحميه دائماً من السقوط .

قيل انه تزوج ، كانت فـلاحة طيبـة ، مثل تلك القـرى التي يأكلهـا الجوع ، ويشققها العطش كلما وجدت الارض نفسها بعيدةً عن مطر السماء .

شهران، مكث لدى عروسه ، وجابر رئيس المخفر ذلك الصديق الوفي له ، قالَ مرةً ان أحمد لطفي بقي طوال شهرين يحاول أن يتم ليلةَ الدخلة مع عروسه بانفجار ما . ولم يستطع ويضحك جابر .

تصوروا شهرين ولم يستطع عمل أي شيء .

ويضحك من جديد : أظنني كنت استطيع اختراق واحـد من سفوح جبال عسير خلال شهرين .

ويدوي الضحك .

- متى ستعود يا استاذ أحمد ؟ .

- سأعود في نهاية هذا العام ، لقد « شبعت » .

كان يقولها هكذا بيسر غريب ، كانت مهمته كلها تكمن في أن « يشبع » ويجيء آخر العام .

- هل أعددت حقائبك للسفر يا أستاذ أحمد ؟

- لا . لن استطيع العودة هذا العام ، سأعود في العام القادم .

ودائماً هكذا .

- وعروسك لمن تتركها هنالك يا استاذ عُدْ إليها . واتمم ليلتك . . ليلة عرسك .

بعدها أوشك كل شيء أن ينتهي بين جابر وأحمد لطفي .

قال جابر وهو يضحك وقد دارت الخمرة في رأسه : ولماذا لا تتركني أذهب اليها وافعل هذا الشيء عنك .

صاعقة أحرقت كل أثرٍ للخمر في أوردة احمد لطفي ، وواصل قهقهته وهو يطلق كلماته ويدفع احمد لطفي بعيداً :

- لا يا أحمد انني أُمازحكَ يا رجل ، أمازحك . . ويبتعد عن اليدين المتشنجتين .

يجلس احمد لطفي ويبكي . . فيهدهده جابر كطفل .

وفي الليلة التالية كان أحمد لطفي يتسلل باتجاه عشة حنش ، حنش الفران ، الذي يبيت ليلة الجمعة في القنفذة .

. . غاص المحراث في بطن الارض الجافة ، دفعه أبو محمد الى العمق

بقدمه . . ثم دار الجاموس نصف دورةٍ وعاد ، صحراء واسعة ، من يملك القدرة على حراثتها ، من يستطيع ان ينبت فيها وردة . . اعرف . . الوردة شيء مستحيل ، من يستطيع ان ينبت فيها ظلا . .

هذا هو العام الثاني الذي يمرّ على وجوده هنا ، العام الثاني ، ولم يكن ثمة ما يقدر على مغالبة هذه الوحشة عامين كاملين .

في العام الماضي جاء ، نظر الى سبت شمران وقال كلاماً لا يعرف الان لمن كان يوجهه ، لا يعرف ان كان ثمة انسان أصلا قد قال له ما قاله .

ـ هل سنسكن هنا . . في هذه القرية ؟
ـ أجل . . هنا .
ـ ولكن ذلك مستحيل .

ـ هذه احدى افضل قرى منطقة القنفذة ، إحمد الله ، ان حظك رمى بك الى هذه القرية ، لا . . ربما حظ ابنتك ، ربما هو حظها .

ولكن فاطمة لم تقل شيئاً ، منذ ان وطأت قدماها هذه الارض ، التي تحتل الغربة مياهها ومداها ، لم تكن قادرة على قول أي شيء ، كانت تعرف ان مهمتها تكمن في التفافها بهذا الليل الموحش ، المتحرك حولها ، القابعة في زواياه التي تشكلها الريح كيفما شاءت . كان هذا اقصى ما تستطيع ان تفعله ، لعلها تعرف مهمتها جيداً . . أجل . . لعلها تعرفها .

الصحراء واسعة . . والمحراث يغوص في الارض .

في البداية إمتدت يد صغيرة ناعمة الى صدر فاطمة ، إهتز جسدها ، ولكنه لم يقاوم غربة تلك النعومة ، امتدت يد اخرى ، ليست كالأولى ، ولكنها طالعة منها ، ثم امتدت يد أُخرى أكثر خشونة . . تململت فاطمة . . ابتعدت قليلا . . ولكن الزاوية لم تفتح حجارتها لتخبىء فاطمة ، أما الظلمة البعيدة فقد اتحدت بالظلال ، سائل لزج أسود غطى جسدها ، سائل لزج

أسود ، حاولت ان تقف . لم تجد قدميها . . صرخت . . لا . . إشتد حولها القيد بحيث لم تعد قادرة على الاحساس بهما ، همت بالصرخة ، ولكن الايدي كانت قد اقتربت كثيراً ، الى تلك الدرجة التي بدأت تنتزع الألفةَ من روحها . . الشوارعَ من ذكرياتها . . والحلمَ من تفتحها الذي لم يكتمل .

في الزاوية قبعت ، بعينين فزعتين ، بشفة ترتجف ، بيدين تقبضان على رمل ينسلُ من بين اصابعها كالماء . عباءةٌ تلتف حولها .

عبرت اليد الناعمة الى صدرها ثانية . . تحسست خضرتها ، خضرتها المطاردة ، لامست نهدها ، إمتدت يد اخرى ، أطبقت على النهد باحكام ، بينما كانت يد أخرى تشرع فستانها وتنزلق الى الداخل لتطبق على النهد الاخر لوحت فاطمة بذراعها كنائم يحاول طرد أفعى تجتاز حلمه .

بسرعة بحثت عن منفذ ، الباب يبتعد والجدران وحدها التي تقترب ، قفزت فأوشك نهداها ان يُقتلَعا من جذورهما . ولكن الأيدي . . مئات الايدي راحت تلاحقها .

في زاوية مظلمة أخرى حاصرتها ، حيث لا ملجأ للجسد الا الجسد نفسه ، ولا متراس له غير الذراعين أو الصدر .

أطبقتْ الايدي من جديد على نهديها ، يد ناعمة ، يد خشنة ، يد متشققة ، يد . . ويد ، عشرات الايدي الجائعة أطبقتْ على نهديها آخذةً بالانكماش والانبساط الافَ المرات ، وحليب فاطمة ينساب فجاً كالحزن .

مرهقاً كأعالي الدوامة .

محتقناً كدمعة .

عشرات الايدي تحلبها ، بأصابع جائعة ، وبأعين يملؤها الفزع والفراغ .

كانت الزوابع تدور ، تلتف حولها وتتركها تتهاوى في عتمة عباءة أُخرى

تصل السماء بالارض .

عبرت فاطمةُ الجدرانَ ، ولكن المدى كان أوسع من خطواتها ، كان المدى أوسع .

ـ يا ابي .
ـ ماذا يا فاطمة ؟
ـ لا شي . . لا شيء يا أبي . . لا شيء .

ـ لو انني أستطيع زراعة شيء من الخضرة هنا ، أي شيء ، الا تعتقدين أن بامكاننا ان نزرع صنفاً او اثنين من الخضروات ، الماءُ هنا كثير ، والأرض . . . أنا أشكُّ في الارض ، الماء يحيي ، ولكن هل سيمنح هذه الأرضَ خضرةً كالتي أحبها .

. . كالتي أفتقدها .

ـ يا أبي تستطيع ان تُجرب .

ـ أتعرفينَ . . لا يستطيعُ أحدٌ ان يساعدنا مثل أبي عبد الرحمن . . هنالك قطعةُ أرض له قرب البئر ، واذا ما وافق على ان أزرعها فسوف أمضي الى العمل فيها إعتباراً من هذه الساعة .

. . وافق أبو عبد الرحمن ، ولكن ذلك لم يكن كافياً لكي تُزهر هذه الارض بشيء يشبه الحياة . .

تساقطتْ حباتُ العرق على الجبين الابيض ، انحدرت حتى طرف شاربه . . ثم استقرت هناك ، كانت أشبه بلسعة نحلة ، عاجلها بظاهر يده ، فامتص القميصُ الاخضرُ بخطوطه البيضاء المغبرة نصفَها .

ستونَ عاماً . . وليس لديك أفضل من هذه الارض .

. . ستون عاماً . . وليس لديك ما هو اكثر من بساط الشوك .

غاص المحراث من جديد . . دار الجاموس نصفَ دورة . . عـاد . . ودارتْ الشمسُ دورتها دون ان تكف عن متابعة تلك الطيبة في قسمات أبي محمد . . في عينيه الذابلتين . . المثقلتين بالغبار . . المفرغتـين من الأمل ، ماذا ؟ الامل . .

لعل أبا محمد قد أدرك ذلك بعد أن بدأ بقليل ، بعد الدورة العـاشرة للجاموس ، لعله أدرك ان ما يفعله لن يغيّر شيئاً ، وان هذا الرمل . . رمل فقط ، ولن يكون أرضاً لن يكـون ، ولكن كان عليه أن يستمر . . حتى يُبقي على آخر نبض للحياة في عروقه .

ـ هذه الارض تخذلني يا فاطمة .

تخذلني . .
وتخون عرقي .
ومحراثي
تخون يديَّ هاتين
تخونُ حنيني للحياة .
تخونني .

. . وانت كنت تعبرُ البرّ ، صحـراءُ الصمت تمتد ، تحتـل الفضاءَ ، والرملُ ينتشر صحراء أُخرى .

ـ يا ابا محمد . . ما الذي ترجوه الان .

شهران كاملان مرا ، شهـران كامـلان ، والحياة التي سكبتهـا في هذه العروق الجافة لم تُزهر ، لم تزهر مياهك يا أبا محمد . . وعبثاً . . عبثاً تحاول أن تجعل من هذا الرمل أرضاً .

ـ انـا لن ادفع فلسـاً آخر . . حتى لـو اضطرني ذلـك الى ان أبيتَ في العراء ، هنالك . . مع الذئاب والثعالب .

قال أحمد لطفي : هذا من حقك . . أنا لن أجبرك على أن تسكن في هذه الغرفة ابداً . .

لن اجبرك على ذلك .

انتفض ابو محمد من جديد . . وألقى بجمرات غضبه . . حارقةً . . ولكنها مجروحة .

ـ القتل هو أفضل ما تستحقه واندفع باتجاهه .

لكن أبا عبد الرحمن الذي كان يحاول حتى تلك اللحظة الوقوف بين أبي محمد وأحمد لطفي اندفع فجأةً وهو يصرخ :

أنا الذي سأشرب دمك يا كلب .

تراجع أحمد لطفي التصقَ بالجدار تماماً ، إقترب منه أكثرُ من رجلٍ يتصاعد الغضب من قبضاتهم وعصيهم .

ولكن جابر قد ظهر ، صرخ ، لن يلمسه أحد وأنا حيّ ، ابتعدوا ، هيا ابتعدوا .

ولم تكن هذه المرة هي الاولى التي ينقذه فيها .

أبو محمد . . رجل ما ان تلمحه حتى تحس بأن كل الاشياء الجميلة في داخلك تأوي اليه ، تشعر بذلك القرب الذي يحيطك بذراعين من القرى ، ولكن كل ذلك لم يكن قادراً على ان يزهر في قلب أحمد لطفي .

. . أيتها الصحراء.

. . أيتها الصحراء

كانت تلك الحادثةُ فضيحة كبيرة لمجتمع المدرسين ، وحتى لأولئك الذين لم يصلوا بعد . .

كانت القرية أضيق من أن تخبىء التفاصيل . . كانت أضيق . .

مرة أخرى تتعثر ، تحسست الرمل ، لاهب مظلم ، موحش كأعين الخفافيش ، حاد كمناقير « الصعو »(*) وفاطمة في عتمة أحد اركان غرفة أبي عبد الرحمن تتجمع على نفسها . . محاولة الفرار بروحها من هذا الدمار . . وبجسدها الذي تمتصه الغربة . . كفم هائل ينقض على عود قصب سكر .

لم يسكن أبو محمد هنالك في بيت أبي عبد الرحمن ، لم يسكن في بيته القديم، اندفع ينادي بأعلى صوته: يا فاطمة . . ثم التفتَ الى احمد لطفي قائلا : حتى لو أدى الامر الى ان ننام في هذا البر فسننام ولكن لتعرف ، انني لن أقبل بأن نكون وجبة لجشعك .

انتزعتْ فاطمةُ جسدَها من بين الأيدي التي تحلبها ، كانت قد جفت تماماً . إنتزعت جسدها ولكنها لم تبتعد كثيراً ، كان لا بد من أن تتعب كان لا بد من أن تتوقف ، ولذا . لم يكن في الارض ما يقف بينها وبين تلك الأيدي التي لم تستطعْ فاطمةُ ردَّها.

وهنالك . . بين المياه التي لا تُزهرُ والحقل الذي ابتلعته الصحراءُ ، هنالك استلقى أبو محمد ، واستلقت فاطمة بجانبه . . وناما . . حتى نهضا ذات ليلٍ . . فوجدا الدنيا معتمةً أكثر من عادتها ، تحسسا الظلمةَ فاكتشفا ان ثمة جدرانَ تنتصب حولهما ، وباباً يتسلل منه الضوء وعواءَ ذئاب وأعينَ ثعالب ، فعرفا ان لديهما الان غرفة . . غرفة صغيرة . . زنزانة صغيرة . . منبوذة على طرف العالم ، تعود لأبي عبد الرحمن ، كانت مخزناً للذرة والافاعي والجرذان ، وهي صالحة الان لكل تمزق العالم ، صالحة للنوم الثقيل ، والعيون المشرعة المفضية الى الرعب . .

فلتناما إذن . . ولتنعم الصحراء بطول ليلها . .

ولتُزهر وحشتها . .

ولتزهر .

---

(*) الصعو: نوع من العصافير . . في بلاد الشام يسمى الخُضّر .

صاح الديك .

منذ زمن طويل لم يصح ، منذ عام ربما ، منذ عامين ، صاح حتى استيقظ الصبار وتململت الحجارة في الوادي . والقتْ التلالُ رؤ وسها على سفوح الجبال ، لعنته الثعالبُ ، ورسمته فوق انيابها وجبةً دسمة للّيلة القادمة .

صاح الديك .

هذا يعني أن هناك أحياء في الجوار ، يجب ان يستيقظوا . . أليس كذلك يا محمد ، هذا يُفرحُ حقاً ، بعد ان كدتَ تحفر حفرةً . . تلقي جسدكَ فيها ثم تنتظر الريحَ أن تواريك بالرمل أو بالصواعق .

من فوق ذلك الجذع المتيبس ـ البيت ـ هو بيته . . وشباكه الذي لم يكن الأفق في يوم الا باتساعه ، صاح . . نفضت الدجاجةُ السمراء جناحيها ، لم تبصر ضوءاً يستحق كل هذا الصياح ، فدفعت برأسها تحت جناحيها ونامت من جديد .

الدجاجةُ البيضاء لم تتحرك ، كانت أشبه بحجر غافٍ ، منتصبة تراقب كل ما يدور لم تكن تستطيع ثنيَ رجليها كما يجب ، كانت طويلة كطيور البجع ، ومغفلةً كدجاجة عاديةٍ حقاً . .

من بعيد عبرَ صوتُ « معيضه » كأنه حلم طائش ، أو رصاصة تبحث عن شكل ، وملأ الجوَ ثغاءُ أغنامها ، أما عصافير الصعو فقد هاجمت عرانيس

الـذرة البيضـاء ، آلاف من العصـافـير . . آلاف من عـرانيس الـذرة ، وفزاعتان ، تنكمشان على بعضهما خوفاً من المناقير الصغيرة الجائعة أبداً . .

طـرقتْ معيضـةُ صفيحتهـا الفـارغـةَ ، لكن العصـافـير لم تتحـرك ، اقتـربتْ . . دخلت حقل الـذرة ، طرقت صفيحتهـا ، لـوحت بـذراعهـا الصغير ، هزتْ السيقانَ الصفراء ، لكن العصافير لم تتحـركْ . . ارتعدتْ معيضة ركضتْ . . فرتْ بعيداً بأغنامها . . ودوتْ طلقات بنادق الصيد . . ارتفعت العصافير الى الفضاء ، بحواصلها الممتلئة وأجنحتها الملوثة بدماء من قتل من رفاقها ، ثم حطتْ من جديد تنقرُ الذرةَ ، وبقايا اللحم الملتصقـة بالعرانيس .

للحظة خيل اليكَ ان معيضة تسترقُ النظر من بين قضبان النافذة ، على الرغم من تحذيرات ابيها ـ العم سعود لها ـ وطلبـه منها الابتعـاد عن بيت المدرسين .

: ابتعدي يا معيضة . . ابتعدي قبل ان تحترقي ، ما زلت في الثانيـة عشرة ، طفلة . . .

لا شيء مُفرحٌ لك مثل التلصلص على الأستاذ أيتها الشقية . . إبتعدي لم يبقَ لديَّ ما يشبه الخضرةَ . . إبتعدي . .

جلستْ القرودُ على مؤخراتها الحمراء ، فوق الصخور الملتهبة ، جلستْ تراقبُ ، بعض صغارها ، متشبثون بظهور أُمهاتهم ، وعيونها تدور بانتظار فسحةٍ ما بين الرصاصة والرصاصة ، ما بين عصفور ممزق وعصفور طليق ، لكن جديداً لم يحدث ، ساعات طويلة مرت ، وهي ملصقة مؤخراتها العارية بالصخور الملتهبة ، وأنت لم تكن قادراً عـلى ابقاء يـدك دقيقة واحـدة فوق لهيبها ، بكتْ القرود . . تلوتْ ، لم يكن ثمةَ ما يؤكل في هذا البر الواسع غير الذرة ، لم يكن في الجبال غير الحجارة ، لم يكن في البر غير الشوك .

دوت الطلقاتُ من جديد ، طارتْ رفوف « الصعو » ، ولكن الكثير من

هذه الطيور ، لم يغادر مكانه ، ممسكاً العيدان الصغيرة بقدميه الدقيقتين ومطلقاً منقاره يعمل برعب ، باحثاً عن الحياة .

القرود لم تكن تستطيع عمل ذلك ، والحاج سعود يعرف كيف يداويها ، ورغم انه ضحكَ اكثر من مرة في الايام الماضية ، وهو يراها جالسة ، على مؤخراتها ، تترقب طوال النهار ، الا أنه لم يضحك هذا اليوم . .

لوتْ القردة أعناقها . . صعدتْ سفح الجبل غابت . . ثم علا صراخها . . إن الذئاب تبحث عن طعامها أيضاً . .

عبرتَ الطريق . . ذلك الطريق الممتد بين الغرفة المهملة في ضواحي القرية ، وبين باب المدرسة ، اشجار الدوم تنتشر خلف الغرفة ، على بعد مائة متر منحدر صغير ، ثم أشواك برية ، طريق متعرج . . ضيق . . وقصير ، ثم الوادي ، آثار عجلات السيارات ، وأرجل البهائم . . والمواشي .

شيء واحد كنت تخشاه ، لم يكن الظهيرة التي تبدأ قبل الشروق ، لا . . لم تكن تخشى ذلك ، كنت تخشى ان يسألك احدهم عن الاستاذ محمد ، كنت تعرف أنك لن تصل الى باب المدرسة ، قبل ان يسألك الكثيرون نفس السؤال :

لا نرى الاستاذ محمد معك اليوم ، عسى ما في شر ؟

كنت تخشى ذلك ، فانحرفتَ باتجاه الدغل الشوكيّ ، وسرتَ بعيداً عن الانظار ، لم يكن احداً قد صادفك بعد ، ولكن . . كان كل شيء يوحي ان الطريق ممتلئة بالناس . . ممتلئة بالأسئلة .

اتعبكَ ان تتقي الاشواك بكل هذا الحرص ، وان تفتح دربك بصعوبة بين الرؤوس الصغيرة المدببة ، عدتَ الى الطريق ، وسرت .

الشيخ حجر مرَّ بسيارة الجيب . . توقف . . ألقي عليك تحية الصباح ،

هو صاحب المدرسة وهو شيخ المسجد وزوج أربع نساء ، يقولون بأنهن الاجمل بين نساء ثريبان .

سألك عن صحتك . . أحوالك . . وأكد لك ضرورة اقتناء دراجة نارية .

: تلزمك الدراجة يا استاذ . . المسافة بين القرية وبيتكم ليست قصيرة . .

ثم سألك عن معاملة الحاج سعود ، صاحب الغرفة ، وعلى الرغم من انه أكد لك اكثر من مرة ، حين وجه اليك نفس السؤال ، ان الحاج سعود ، طيب وشهم الا انكَ كنت تحس بأنه يريد منك ان تقول غيرَ هذا ، ليلعن سعود وحجته .

بعينيك المشردتين ، كنتَ تترقب ان يتغير مجرى الحديث، كأن اسئلة العالم متربصة بين الاشجار ، وتبحث عن فرصة مناسبة ، حتى تنقضّ عليك ، لكن شيئاً لم يحدث ، بقيت الاسئلة متربصة . . هي لم تُسألْ . . وأنت تواصل الدرب . .

وما كدت تودع الشيخ حجر حتى كنتَ قد اقتربت من البئر ، حيث كان سالم الشمراني ، العائد في إجازة ، من الجيش ، يسوق أغنامه .

لم يسعدك أن ترى سالم ، أنت لا تحب الجنود . . ولا تحب الشرطة ، بهما تتذكر ما لا تحبه وتخشى ما لم تره بعد .

يا سالم . . لا تسألني . . إنني بخير كما ترى ، بكامل عافيتي . . بكامل قوتي .

قال : أراك شاحباً يا استاذ محمد ، كأنك فقدتَ النصف . .

ارتجفتَ . . أجل ارتجفتَ ، داهمك البرد فجأة.

قلت : وقع المحظور . .

: عليك ان تستريح يا استاذ محمد . . ها أنا سامكث شهراً كاملاً هذه المرة ، أريد ان ارتاح من حر « تبوك » .

قلت : وكيف سأرتاح من حر القنفذة ؟؟

لكنه لم يجب . .

لاحظت القرية من بعيد ، مقسّمة بين بياض غرفها ، وحلكة أسوارها الحجرية العالية ، وابراجها التي تنتصب كأن الحرب ما زالت قائمة بين القبائل .

بدأتْ الاصواتُ تصل اليك من بعيد ، من ساحتها الوحيدة ، بدأتْ رائحةُ روث المواشي تهب . . محمَّلةً ببعض النسائم ! .

للحظة . . احتلتْ رأسكَ فكرةٌ واحدةٌ : لم لا أعود اليوم الى البيت ، لم لا اختفي بعيداً عن الاسئلة ، هذه التي ستجلب ليَ الكثير من الأرق ، الكثير من الحُمَّى . هو اختفى ، هرب ربما ، ولكن دعوه يهنأ برحيله .

توقفتَ على مدخل القرية . ممر ضيق محصورٌ بين صخرة مستديرة هائلة ، وتل من روث المواشي .

اذا لم يكن الشيخ حجر او سالم الشمراني قد سألا . . فان مدير المدرسة سيسأل حتماً . .

كنت على باب الادارة ، على باب غرفة القش ، بسقفها وجدرانها ،

قالوا : لك . . هذه هي المدرسة . .

قلت : هذه ؟!! .

قالوا : أجل . .

قلت : وأين سيجلس التلاميذ ؟

قالوا : الى ان تصل المقاعد يجلسون على البطانيات ، أما الالواح

الخشبية . . فستكون موجودة بعد أيام .

قلت : ولكن هناك الكثير من البيوت في القرية . . وتصلح لأن تكون مدرسة ، فمال الحاج سعود باتجاهك . . وقال :

ولكن الشيخ حجر قد سبقنا!

قلت : بماذا ؟

قال : بذبح خروفين لمدير التعليم ، ودعوة العمة صالحة وابنتها سالمة الى بيته والسهر حتى آواخر الليل .

قلت : وما علاقة العمة صالحة وابنتها . .

فقال : الا ترى سالمة جميلة

قلت : جميلة .

قال : وهي لا شك حارة كأُمها.

قلت : وكيف عرفت ؟

قال : يقولون ـ والله أعلم ـ ان العمة صالحة ببظرين بخلاف كل نساء الارض !!

عبرتْ اذنيك الفوضى ، لا شيء يوقفها ، وهي تصل صاخبة ، حادة ، محتشدة بأصوات مبهمة

: تأخرتَ هذا اليوم يا استاذ .

قلت : وأنتَ بكرت كثيراً .

قال : هذه هي المرة الاولى التي تتأخر فيها . . عسى ما في شر

قلت : لا . . لا يوجد .

مـلامحك الكئيبـة ستفضحك . لـو انـه يحـدق قليـلا في وجهك فإنـه سيعرف . . بسرعة . . ألقيت توقيعك في دفتر الدوام ، اجتزت العتبة ـ ولم يكن هناك عتبة ـ رباب . . رامي .

زارَ رامي دار رباب .

ـ يا أستاذ محمد : هل أنت متزوج ؟

قلت : لا . .

: لماذا لا تتزوج واحدة مثل رباب يا استاذ ؟! .

: ولماذا يا عون ؟

: حتى تنكح يا استاذ . . حتى تنكح !!!

كان يقول لك ذلك . . وكأنك لا تعرف من هذه الدنيا شيئاً . .

انفجر التلاميذ بضحكة مشاغبة ، فطرقتَ اللوح بيدك ، خيم صمتٌ ثقيل ، كسرته كركرةٌ هنا وكركرة هناك ، ومال عون بسنواته السبع بعيداً باتجاه الحائط النباتيّ الجاف ، وكأنه لم يقل شيئاً .

ـ من يقرأ ؟

نعم استاذ : رباب رامي .

زار رامي دار رباب .

حصتان . . وانتهت الثالثة، وبينهما كان الترقبُ يغيرُ عليكَ، يتسارعُ نبضـك ، وتود لو انك تفلت من جاذبية الارض .

لم يسأل أحد . .

وسألتْ : لماذا ؟! .

ما ان تسأل حتى ينقلب الامرفجأة .

: لماذا لا يسألون . . لماذا لا يسأل المدير . . لماذا . . هل كان الاستاذ محمد حشرة صغيرةً تحضر دون ان يتنبه اليها أحد ، وتغيب دون ان يفتقدها احد ؟! لقد كان طيباً ورائعاً . . كان حزيناً بعض الشيء . . لا احد يستطيعُ ان ينكر هذا ، ولكنه لم يكن يكره احداً .

اقتربت من المدير ، كان غارقاً في كتابة رسائله ، الى مديرية التعليم ، أمسكته من عنقه . . رفعته . . بعلو مشنقة ، صرخت في وجهه :

لماذالا تسأل . . ها . . لماذا ، هل الاستاذ محمد حشرة . . لا يهمك حضورها . . لا يهمك غيابها ؟.

ـ هل جننتَ يا استاذ هل جننت ؟

ـ عدتَ الى وعيك . . اعتذرتَ .

قرع جرسُ الحصة السادسة ، إنطلقت تركض ، قبل أن يصل التلاميذ الى باب المدرسة ،ومن بين الصخرة الهائلة ، وتل الروث ، درجت الشمس في الطريق . . كتلةً من الجمر ، تفتح صدرها وتطحنك بدورانها . .

وتذكرت : لماذا لم تَحضرْ الشرطةُ ، كان يجب ان يحضروا . . كيف نسيت الشرطة ، كيف نسوني كيف ؟

منذ غروب شمس امس ، لم تطرق الشرطة الباب ، هل غياب الاستاذ محمد لا يعني شيئاً حتى للشرطة .

ربما لم يعودوا الان يذكرون أية تفاصيل ، كانوا بين الظهيرة واللزوجة ، يجمعون أجسادهم ، لعلهم لا يتذكرون الان ، أية حادثة اختفاء ، لعلهم لا يتذكرون انهم أمروا بمطاردتي حتى باب غرفتي .

لعلهم وجدوه . . لا . . هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث ، أن تجده الشرطة ، هو لم يكن يحب الشرطة . . ولم يكن يحب الجنود . إن أسوأ ما يمكن ان يحدث له ، ان تجده الشرطة . .

ناديت : اتخبا مليح أجاك الريح . .

اتسعت مساحات جلدك . . اندفع العرقُ منها . . ينابيع مالحة . . في أرض مالحة ، حدقتَ في الفراغ الذي تحول الى الاف المرايا ، اقتربت اكثر من وجهك في إحداها . . سألت :

هل رأيت الاستاذ محمد . . لا اراه اليوم معك ؟! .

: الاستاذ محمد مَنْ ؟

: الاستاذ محمد . . هو الأستاذ محمد . . الذي إختفى .

: إختفى ؟!! . لم أسمع بذلك .

وبقبضتك العارية . . هشمت المرآة . . فتدفق الدمُ حاراً غزيراً من أصابعك ، ولكن الجراح لم تكن تؤلمك أبداً . . كل ما آستطعت ان تفعله ، أن تحاول إيجاد الفرق بين خيط الدم وخيط العرق . . بين لزوجة الدم ولزوجة الوقت .

صاح الديك ثانيةً .

لم يستيقظ الصَّبارُ هذه المرة . . لم تتململ الحجارة . . لم تتنبه الثعالب . . وحتى الدجاجة السمراء . . لم تخرج رأسها من تحت جناحها الفاحم لتعرف ما الذي يجري .

انفجرتْ القبضاتُ ، فتناثر باب الغرفة شظايا ، هم دائماً يأتون في آخر الليل ، يعبرون ممراتٍ غامضةً ، ومساحاتٍ لا تُحدُّ ، لقد أعطيتهم كل ما لدي ، لم يبق شيء يمكن أن يؤخذ ، الصحراء تمتدُّ حتى البحر ، وليس لديَّ الكثير منها ، مساحةٌ ضيقة . . واسعة ، أجل واسعة نصف مطار ، ولكنها لا تتسع لأكثر من ثلاثين كيساً من الذرةِ ، سريرين . . وطاولة رملية ، آلاف من النمل الأبيض . . الأبيض حتى آلرعب . .

ما الذي يريدونه الان . . ليذهبوا . . وليقلبوا الحجارة ، ربما وجدوه . . وليصعدوا قمم الجبال ، وليبحثوا بعيداً في أعين الصقور أو أجنحة الغربان ، فلربما يعثرون عليه . . هل يريدون أن يزرعوا في رأسي انني هو . . :

لن تنطلي .

انفجرتْ القبضات ، فتناثر باب الغرفة شظايا .

ـ ما الذي تريدونه ؟

ـ نريدك أنت ؟

استيقظ الديكُ . . أما الدجاجة السمراء فقد ملّتْ إخراج رأسها من تحت جناحها ، في حين حدقتْ الدجاجةُ البيضاء بعينين مغمضتين وببلاهة لا توصف .

وعلى ضوء شاحبٍ ، لست تدري من أي نجوم ليلة ماضية قد سقط ، تبينتَ وجهَ أحد رجال الشرطة قلت : الحمد لله .

انفرجت شفاه الضابط ، دنا الشرطيان من أذني رئيسهـما، همسا .

: هو . . هو . . لم يتغير كثيراً منذ الظهيرة .

حدقتَ في وجه الشرطيّ ، ذلك الذي طاردك طوال النهار لم تر الكثير ، إقتربتَ منه ، كان نحيلا جداً ، وآلمك ان يستقيظ في مثل هذه الليلة . . ليأتي اليك ، باحثاً عن الاستاذ محمد . وفي سرك همست : الدنيا بخير ! .

مرت فترة صمت بينكم ، قطعها عواء ذئب في سفح الجبل الصخريّ ، وعاد الرئيس ليهز رأسه .

: نعم . . هو . . هو .

داهمتكَ عاصفة مباغتة ، اهتزتْ أوراقك ، ذبلت حنجرتك ، اتسعت عيناك .

قلت : هل أمسكوا به . . أم جاؤوا ليمسكوا بي . .

بين احتمالين توزعتَ ، داهمتك العاصفة من جديد ، تبعثرتْ اضواء نجوم بعيدة ، تجمعتْ اعين الثعالب المنتشرة في المدى .

كان يوماً قاسياً ، ولكنك تعلمتَ شيئاً واحداً لم تكن قادراً على ان تطلقه بينك وبين نفسك .

ـ تصوروا . . لو أنني الاستاذ محمد ، تصوروا انني هو ، هذا ليس صعباً على أي حال ، ما الذي كان سيحدث لي ، لو علمت ان لا احد يسأل عني غير الشرطة ؟

ولكن الدنيا بخير !

هبتْ الـريح من جـديد ، لسعتـك البـرودة ، انتفضتَ كعصفـور في

ثلاجة . . انكمشتَ ، طار الدفء دفعة واحدة .

ـ كنا نريد القبض عليك ، ولكن اصرار الحاج سعود على زيارتنا لبيته ، وتناولنا العشاء فيها بعد ، أبعد تلك الفكرة . . تحدثنا عنك كثيراً ، أقصد عنكما أنت والاستاذ محمد .

وتساءلت : ما الذي قاله الحاج سعود فغيَّر رأي الشرطة ، هو رجل طيب وهذا ليس مستغرباً منه ، ولكن ما الذي قاله . .

قلت : لا بأس . . المهم أنكم أتيتم ، أنتم تعرفون . . يجب أن يسأل إنسان ما في آخر الامر أجل . . يجب أن يسأل إنسان ما . . حتى ولو كان شرطياً ! .

. . هل وجدتموه .

ـ نحن جئنا لنسألك . . هل عاد الى البيت ؟

قلت : لا . . .

قالوا : وهل تعتقد انه سيعود ؟

لم تعرف إجابة لسؤ ال كهذا ، كيف يمكنك أن تقول انه سيعود ، أو انه لن يعود . . كيف ؟ ولكنك أجبت .

ـ لا . . لن يعود .

ـ اذن انتَ على علم برحيله .

ـ لا . . أبداً .

ـ ولماذا لن يعود . . قال أحد الشرطيين ذلك ، ولم تعرف أيهما

قلت : قد يعود . . وقد لا يعود !

هزّ الضابط رأسه : لم يعد هذا الامر هاماً الان .

قلت : إذن وجدتم جثته .

وقبل ان يغمركَ الدمع ، قال الضابط :

لا . . لم يَمُتْ .

قلت : ولماذا لم يعد الأمر هاماً اذن ؟

قال : لأننا علمنا انه لم يغادر المنطقة ، انه موجود هنا فعلا .

قلت : موجود هنا ؟ . . هذه بشارة ما كان يجب ان تنتظروا كل هذا الوقت حتى تحملوها لي .

قالوا : المهم ان تكون مرتاحاً . . والبقية علينا .

ولكن : هل تستطيع ان تصفه لنا بدقة . . سيساعدنا هذا كثيراً . . واذا كان يوجد لديك صورة له فهذا افضل .

قلت : طويل بعض الشيء . . مثلي تقريباً ، شعر خروبي أجعد ، يشبه شعري تقريباً ، وعينان بنيتان ، وبشرة حنطية ، ويبدو حزيناً بعض الشيء . .

قالوا : مثلك تقريباً ؟! .

ـ أجل .

ـ ويحملُ نفس الإسم .

ـ أجل . . هذه مصادفة اخرى .

ـ وهل ثمة مصادفات لا نعرفها ؟

ـ لا . .

ـ أين التقيتها أول مرة ؟

ـ لا أذكر . . أحياناً يهيأ لي انني كنت أعرفه منذ زمن طويل ، منذ الطفولة مثلا ، ولكنني لم أستطع ان أتأكد من ذلك ، وهو لم يساعدني ، كان يصمت كثيراً ، وكانت العلاقة بيننا ممتلئة بالصمت على الرغم من انني على يقين انه يخبىء سراً في داخله، لا استطيع إدراك تفاصيله أحياناً، وكان يهيأ لي انني التقيته في جدة ، لا . . ربما في القنفذة . . حين هبطنا من سيارة الجيب ، نفضنا الغبار عن ملابسنا . . عن وجهينا . . فبدا شاحباً متعبا . . استطعتُ أن ارسم صورةً واضحة له ، صورة كنت أُحاول التعرف عليها دائماً . .

ـ والصورة . . الا يوجد صورة لديك . . أية صورة .

ـ لا . . قلت لكم انــه يشبهني . الى حـد كبـير، هـل أعـطيكم صورتي ؟! .

ـ يشبهك . . ويحمل اسمك أيضاً .

عاد الضابط ليهز رأسه .

ـ قلتُ لكم . . هي مجرد مصادفة .

ـ اذن نراك في الليلة القادمة .

قلت : تفضلوا . . استريحوا قليلا حتى يطلع الصباح .

قالوا : سنمضي للبحث عنه .

قلت : آتي معكم .

قالوا : ابحث عنه حول البيت .

قلت : حاولوا ان تكونوا طيبين معه

قالوا : نستطيع ان نؤكد لك : لن يمسه أي مكروه .

وقبل ان تعيد يدكَ ، التي كانت تلوّح مودعة ، كانوا قد اختفوا .

. . . . . .

. . . . . . .

حدقت، في الفضاء ، كان متخماً بنجوم متعبة ، عادت عيناك لتستقر على الدجاجتين والديك ، الدجاجة البيضاء ، كانت ما تزال تحدق دون أن تفهم شيئاً ، في حين بقيت الدجاجة السمراء على حالها ، أما الديك فقد اكتفى بتعديل وضع رجليه .

قبل ان تبدأ بالبحث . . خطوتَ باتجاه الغرفة من جديد . . عبرتَ العتبة ، أكثر من ليلة كانت تتجمع في الغرفة . . وليلة واحدة خارجها . . ليلة في داخلها . . اكثر من ليلة خارجها . لستَ تدري .

مرة ثانية تعثرتَ بالطنجرة . . أحسستَ بسائل لزج على قدميك ، قلتَ: كم مرة قلتُ له ان يغسل الطنجرة . .

تلمستُ طرف السرير . . بقايا الطاولة . . الطاولة . . الرمل الناعم ، وأخيراً عثرتُ عليه قرب الحقيبة ، إنه الكشاف ، كان يجب ان أجده منذ فترة طويلة ولكنه . . ومنذ الان لن يستطيع ان يضيع مني ، ان يضللني ، هو آخر ما بقي من نجوم هذه الليلة وهو نجم الغرفة الوحيد . .

بدأت دائرة الضوء تتحرك . . كعين سحرية لهذا الليل الممتدّ حتى اللانهايات ، كانت العين تحدق فيك ، وتتقافز أمامك كلما حركتَ يدك . . وتعود لتتسع .

اكثر من خفاش غادرَ الغرفة ، واحد فقط بقيَ يدور ، ليعود ويلتصق بالسقف الخشبيِّ .

تحركتْ العينُ السحرية . . بسرعة تحركتْ . . أدركته في زاوية الغرفة فوق أكياس الذرة انتفضَ . . حلَّقَ ثانيةً . . فابتلعته العتمة.

فجأة . تذكرتَ الاستاذ محمد . . أنتَ لم تنسه على أي حال . .

تذكرته . . وتذكرت تلك الحرب ، التي لم تتوقف بينه وبين الخفافيش الاّ برحيله ، الليل طويل هنا ـ لا شيء أطول من الليل هنا ، والصحراء موحشة . . لا شيء موحش مثلها ، والوقت متصدع كالأرض التي لم تر الخصبَ منذ قرون ، ولا شيء متصدع كالوقت هنا .

وهو . . الاستاذ محمد . . كان يريد دائماً ان يملأ هذه الصدوع ، وهكذا كان يلاحق الخفافيش من ركن لآخر ، يستلقي في السرير . . ثم يطلق الضوء يبحث عن كائنات الليل الهاربة ، التي تلوذ بعيداً بالزوايا ، لعبة ليلية أوشكتَ أن تنساها .

الاستاذ محمد قال لك مرة : هذه الكائنات يجب ان تتعود الضوء .

كنت تضحك : وما الذي يهمك في هذا ؟!

: لستُ أدري . . أعتقد ان ثمة صلة ما بيننا وبينها . . ألا ترى أننا نجلس محدقين في العتمة مثلها ؟.

: ما دامت تشبهنا الى هذا الحد ، دعها تستريح .

ولكن الاستاذ محمد لا يلبث ان يشعل الكشاف من جديد ، تتحرك العين السحرية . تتسلق الجدار القريب ببطء . . صغيرةً . . نافذةً ، ثم تطوف ببقية الجدران تتسع كلما ابتعدتْ . .

ثم فجأة تنقض كالصقور ، تتحرك الخفافيش . . تتطاير . . تلتصق بزاوية أخرى ، فوق رأسينا احياناً ، ولكنها نادراً ما غادرت الغرفة .

ويعود الاستاذ محمد ليخمد عين الكشاف ، يتحرك هو هذه المرة ببطء فوق الرمل الناعم ، يخطو بصمت . . العتمة كاملة . . شاملة . . وعندما يصل الى الزاوية البعيدة ، في أقصى الغرفة ترتفع يده . . عيناه في الزاوية . . مثبتتان على نقطة لا نهاية لها . . ثم يفتح الضوء من جديد . . فتتطاير الخفافيش . . ولا يبقى في الزاوية الا من ادركه التعب . . ولكنه لا يلبث ان

يهرب . .

: سأُغلقُ هذه الغرفة أياماً طويلة ثم أُشعل الضوء ليل نهار ، يجب أن تتعود هذه المخلوقات على الضوء ، أن تراه وتلوذ به . . لا ان تهربَ منه .

. . . . . .

. . . . . .

لمعتْ أعين الثعالب ، وبدت الدجاجة البيضاء وكأنها فقدت القدرة على العودة الى النوم . اما الديك فيبدو انه لم يعد مهتماً بما يجري ، واشتد الظلام ، فافتقدتَ الدجاجةَ السوداء .

حول الغرفة كنت تدور . . وكانت العين السحرية تتنقل . . تثقب العتمةَ ، خارجة منها . . ونافذةً الى سرها . .

: كيف يمكن ان يكون حول البيت . . وكيف عرفوا انه ما يزال في الجوار . . لم تعرف . . هل كان عليك أن تفرح . . أم كان عليك أن تحزن . . فأن يكون هنا يحمل الحالتين ، وأن يكون قد ابتعد يحمل الحالتين ، لم تعرف . . هل كنت تحب ان تراه ام لا . . ان تجده . . ام تبتعد عنه اذا ما صادفته ، ان تقول له اهرب بجلدك . . أو أهرب بجلدي قبل أن تدركك الشرطة والصمت والوقت وعصافير الصعو الجائعة والقرود المنكوبة . .

توغلتَ في الليل . . حتى الشوك وأشجار الدوم ، فرتْ الثعالب ومن بعيد قدحتْ عينانِ كجمرتين كبيرتين متقدتين ، ارتدت عنهما دائرة الضوء ، مثقوبة ، واهنة ، فعدت أدراجك بخطى واسعة باتجاه باب الغرفة .

عادت الخفافيش لتستعيد أماكنها في الزوايا ، كنت تسمع رفيف أجنحتها يتناثر حولك ، فزعاً . . مترقباً ، ولكنك لم تعد قادراً على إضاءة الكشاف ، كنت تخشى ان ذلك سيجلب نور الشمس ، أو كل تلك الكائنات المطاردة بحراب الوحدة والعزلة في هذا البر .

.. لأول مرة تخشى الضوء .. هل هذه مجرد مصادفة أخرى ؟

تساءلتَ .. ارتعدتَ .. نهضتَ من جديد .. القيتَ برأسك على الوسادة ، وعلى الرغم من الحرارة التي تصهر الداخل ، القيتَ الغطاء الصوفي فوق جسدك .. وهناك .. بعيداً بعيداً .. أشرعتَ عينيك في مدى ضيق واسع .. في حين اقتسمتْ ثلوجُ العالم ونيرانه خلاياك .

هبطتْ الخفافيش .. باتجاه الكشاف .. تشبثت به .. تدحرجٍ في البداية .. أخرجتَ رأسك لتعرف ما يجري .. انفتح الضوء فجأةً .. فعدتَ لتغمرَ رأسك برعب شديد .. تشبثتْ أصابعك بالغطاء .. حتى انفجار الدم .. تحركتْ دائرةُ الضوء فوق الغطاء .. تابعت تحركها حتى وصلتْ الى رأسك .. حيث عيناك تدوران بفزع ..

شددتَ أطراف الغطاء حولك .. أنزلتَ قدميكَ على تراب الغرفة .

يجب ان أغادر هذه الليلة .

بحذر جاءت خطوتك الاولى .. وفي الثانية تعثرتَ ، رفتْ الأجنحة حولك ، علا صوتها .. غطى العالم . دنا الصوت منك .. زحفتَ .. حيث كان الباب .. اصطدمتَ بجدار صلب .. كأنك تفاجأ به للمرة الاولى .. عين ضوئية مصوبة عليك .. تتابع زحفك .. تتسع العين .. وأنت في وسطها مثل فراشة تحترق ..

الى أية زاوية كان يمكن أن تصل .. الى أي حجر .

تشبثتَ بالغطاء .. داهمتك الاجنحة .. صرختَ ..

صاحَ الديك بصوت عالٍ .. فابتعدتْ الأجنحةُ برفيفها . فجأة ابتعدتْ .. كأن النهار قد أطل مبتدئاً بالظهيرة ..

أما بقعة الضوء .. فبقيت تتأرجح فوقَ الطاولة .. وما لبثت أن خبت ..

إخترق نصل البلطة الأرض ، فانتصب مقبضها الخشبيّ ، كأن الاف الجذور امتدتْ بعيداً في الرمل . . تمنحه كلَّ هذا الثبات .

بغتةً ، كسهم اخترقَ الباب ، إجتاز العتبة مرتجفاً مزبداً . . ثم هوى بالبلطة على جسد الارض .

كان يمكن أن يتفجر الدم من ذرات الرمل، ولكن معجزة ما حدثت.

بعينيه الصغيرتين تصفح المكان . . وبوجهه « المصفوق » فجَّرَ الظهيرة .

ـ لن تمكثوا هنا دقيقةً أخرى ، والاّ فان أحدنا سيذهب اليوم الى المقبرة .

لم تكن تدرك شيئاً مما حدث ، وجهٌ يطالعك . . من حيث لا تدري . . حاملاً البَرَّ في قسماته والحرائق في نظراته . .

قلت : ولماذا نرحل ؟

إلتفتَ الى « العشة » ، تلك التي تنتصب كقبعة بهلوان . . وقال :

هنالك حريمي . . هنالك شرفي . . وشرفي يداس اليوم . . كيف يقبل الحاج سعود أن يبيعني بمئة ريال ؟ كيف ؟

في تلك اللحظة آنجلى الأمرُ وتَبَيَّنَ .

قلت : نحن آستأجرنا الغرفة من الحاج سعود وتستطيع أن تتحدث معه هو .

قال : ولكنكم سترحلون الان قبل ان يتفجر دمي ، مال الى الارض والتقط ذراع البلطة ، انتزعها من مكانها ، ثم حدق في وجهك من جديد .

ـ الان سترحل .

لم يكن الاستاذ محمد هناك ، الأرجح أنه لم يكن موجوداً . . والا لكان ردُّك أكثر جرأة

: لا أستطيع ان اقول لك الا اذهب وتحدث مع الحاج سعود ، إذا طلب منا ان نرحل فسنرحل ، ويبدو ان صاحب البلطة قد لانَ . .

هو اليوم الثاني الذي يمرّ على وجودك في ثريبان ، لماذا لم يأت بالأمس . وكأنه يقرأ داخلك قال .

: لم أكن أعلمُ ان هناك أغراباً يسكنون مقابل عيالي ، والا لما نام إنسان في هذه الغرفة وأنا على قيد الحياة .

كـان كل ما يدور يوحي بدموية حادة ، وبأكثر من طائر شؤم . .

: سأمهلكم حتى المساء . . وبعدها . . لن يردَّني أحد عن القائكم في أسفل الوادي وحمل البلطة . . ومضى . .

في وسط الغرفة وقفتَ حائراً . . يجب ان تفعـلَ شيئاً مـا . . يجب ان تتحدث الى الحاج سعود . .

الـظهيرةُ تـطلق لهيبها . . تختبىء الكـائنات . . الصقـور ، الحجـارة والرمال ، الأشجـار والظلال الغـربان والبـلابل . . وهـل ثمةَ بـلابل . . آه . . ؟

ناديتَ ، فخرج الحاج سعود من إحدى العشش التي لم تكن تنظر اليها .

خمس عشش تتناثر فوق تل صغير . . بينهـا بيدر ، أكياس من الذرة ، وزجتان في الداخل ، سمعت عنهما فيما بعد . . ولم ترهما أبداً .

ـ خير يا أُستاذ .

قلتَ ـ وكأنك تتحدث في مضارب أحد شيوخ البدو ولك حاجة عنده ـ : حين نسكن بيتك . . . هل نكون في حمايتك ؟

قال : أحميكم بدمي .

قلت : ردَّ ذلك المجنون عنا ! !

قال : مَنْ ؟

فسردتَ عليه ما حدث . . فقال :

لم يبق الاّ غبشان . . يا أستاذ . . اتركه لي . . أنا أعرف كيف أتعامل معه .

. . . . . . . . .

لم يعد غبشان ـ ليجتاز العتبة ببلطته . . ووجهه المصفوق . . فقط . . جلس على صخرة سوداء أمام عشته مطلقاً عينيه تشعلان المسافة بينكما ، ثم دار حول العشة . . اقترب من الغرفة . . توقف في منتصف المسافة . . ثم عاد ، كرر ذلك مرات عديدة ، يقترب ، يتوقف في نفس النقطة . . بغيظه المحتقن ، وكأن خطاً سرياً محرّماً امتدَّ بين الباب والعشة . . فلم يعد قادراً على اجتيازه . .

غبشان . . من غبشان ؟ . .

لم تكن تعرف شيئاً عنه . . نحيل مثل هيكل عظمي . . جاف كخشبة . . منحنٍ كسقف على وشك الانهيار . . ومتيبس كأعوامه الستين . وأنتَ . . لا تستطيع أن تجد مبرراً لكل ما يحدث . .

نعم لقد لمحتَ مساءَ أمس امرأةً . . طيف امرأة . . ملتفاً بعباءة . . لم تعرف هل كانت ذاهبة أم آيبة ، ثم اختفت في داخل العشة ، ولم تعد تظهر ،

هل حصل شيء يستدعي كل هذا الغضب ؟

قلت : يا استاذ محمد . . هنالك امرأة . .

قال : هنالكَ عباءة . . أنت لا ترى إنساناً . . كلّ ما تراه خيمة سوداء تتحرك .

قلت : أرى عباءة تتحرك !!

قال : ولا تستطيع أن تراهن على ما في داخلها .

كل شيء آنتهى الى هنا .

كلُّ شيء ابتدأ من هنا .

بلطةٌ تشقُّ الأرضَ . . ينتصب ذراعها . . أملس كأفعى ، ورجل يزبد في منتصف الغرفة .

هبط المساء . . أطلت الشمس . . اشتعلتْ . . انطفأتْ . . وأطلَّ صباحُ جديد ، وهبطَ ليل آخر ، وما زال غبشان يخطو . . ثم يتوقف عند ذلك الخط السريِّ بين البلطة والدم . . بين العشة والغرفة الحجرية .

قلت : يا استاذ محمد . . أرى ان نخبر الشرطة . .

وتلك كانت المرة الاولى التي تفكر فيها بالشرطة . .

قال : لا . . لا عليك . . لن يفعل شيئاً . . هل تحدثتَ مع الحاج سعود .

ـ نعم

ـ وبماذا وعدك .

ـ أن لا مكروه سيصيبنا .

ـ إذن استرح . . لو كان عبشان يريد أن يفعل شيئاً لفعله ، ولكنك لم

تستطع إبعاد صورته وهو يخطو باتجاهك . . ثم يعود . . حتى بعد ان أغلقتَ الباب بإحكام وآويتَ للفراش .

واستطعتَ ان تعرف ان للحاج سعود نفوذا وكلمة ، لا يستطيع أحد التغافل عنهما ، وكانت كلمته ذلك السدّ الذي يقف بين نصل البلطة والدم . .

بعد ذلك بيومين اكتشفتَ وجود الخفافيش في الغرفة ، تقاسمكما نصفها وتختبىء بعيداً خلف اكياس الذرة ، مطلقة رؤوسها تنحدر الى الاسفل ، ومخالبها قابضة على الخشب .

كنت قد سمعتَ ، ان هنالك خفاشاً يمتصّ الدماء ، ما عليه الا أن يرى قدماً غير مغطاة ، ينقضُّ عليها . . يمتصّ ما فيها من دماء ، دون ان يشعر النائمُ بشيء ، ثم يعود الى الزوايا المظلمة من جديد .

أمسكتَ بعصا طويلة . . ثم اندفعتَ باتجاه نصف الغرفة المظلم . . طارتْ الخفافيش . . ابتعدتْ اقفلتَ النوافذ . . البابَ ثم آويتَ الى فراشك . .

قال لك الاستاذ محمد :

الخفاش مصاص الدماء لا يعيش في هذه البلاد . . ولكنكَ حرصتَ على الاّ يظهرَ أي من اطراف جسدك خارج الغطاء .

في صباح اليوم التالي نهضتَ ، وقبل ان تفتح الباب . . كانت الخفافيش تتطاير من زاوية الى أخرى . . فامتلأتَ بالرعب وأنت تشير اليها .

ـ انظر . . كيف استطاعت الدخول . . كيف ؟

قال الاستاذ محمد : من هناك . . وأشار الى طاقة صغيرة في الجدار ، أسرعتَ ، أغلقتها بحجر كبير وبعض الحجارة الصغيرة .

قال الحاج سعود :

يا استاذ . . غبشان طيب ولكن أنتَ تعرف . . هي المرة الاولى التي يصل فيها أُستاذ الى القرية . . ويجب ان تعذره ، لقد تجاوز الستين ، ولديه امرأة جميلة يخاف عليها .

قلت : ولكننا لن نأكلها .

قال : أعرف ذلك ، لقد تحدثتُ معه ، وحذرته ، لن يستطيع ان يؤذي احداً .

ولكن غبشان الذي لم تره في اليوم الاول لوصولك . . كان ما يزال يدور حول العشة . . كزنجي يرقص حول النار . . متحفزاً . . متوتراً . . مزبداً . . تاركاً عينيه تزرعان الحجارة بالترقب المملوء بالشرر .

لا بد ان غبشان قد فكرّ طويلاً . . وأخيراً وجد الحل .

اقتربتْ سيارةُ الجيب . . نزلتْ منها امرأة على مشارف الستين . . متعبة ، بظهر مكسور . . وبشرة مسودّة . . وعصا في يدها . .

نظرت باتجاهك . . باتجاه الغرفة . . لعنتْ وشتمتْ . . لم يصلك الكثير ، وبعد لحظات . . خرجتْ امرأة ـ عباءة من العشة ، صعدتْ الى صندوق سيارة الجيب ، وصعدَ غبشان بجانب السائق ، وانطلقتْ السيارة وسط سحابة من الغبار .

قلت : ما الذي حدث يا حاج سعود ؟

قال : لقد أتى غبشان بزوجته القديمة . . العمة « جرادة » . . ومضى بزوجته الجديدة الى داخل القرية . .

قلت : ولكن . . هل تحتمل العمة جرادة البقاء هنا لوحدها ؟

قال : غبشان يأتي قبيل الفجر الى هنا ، يذهب الى حقل الذرة ثم يعود

قبيل شروق الشمس الى القرية ، يمرّ بالعمة جرادة ، يأتي اليها بما تحتاجه ، ثم يمضي .

قلت : يا استاذ محمد . . اذن فر غبشان بالصبيّة وأتى بالعجوز الى هذا البر .

ولكن . . كنت ما تزال في الليلة التـالية . . غـير قادر عـلى النوم . . بأعضاء مكشوفة ، فأن تنقض الخفافيش على أصابع قدميك تمتصها . . ثم تطير قبل ان تحس بشيء فهذه كارثة .

يقولون : انها تترك جروحاً صغيرة لا تكاد تظهر . . تقوم بعملها بسرعة وتختفي بسرعة قبل أن يباغتك الألم .

أحكمتَ إغلاق الباب من جديد .

فقال الاستاذ محمد : لماذا لا تستريح . . لن يستطيع غبشان ايذاءنا .

قلت : ولكنني أخشى الخفافيش . . انها تمتصّ الدماء . . تقتلنا دون ان ندري . .

ولم تعـرف . . كم من الـوقت قـد مضى . . قبـل أن تتـأكـد من ان خفافيشكَ ليستْ من ذلك النوع الذي يمتصّ الدماء . .

وحين ابتدأت تعاملك معها بهدوء بدأ الاستاذ محمد يتعامل معها بطريقة أخرى !!.

في ظلّ الغياب الكامل للمفاجأة ، الغياب الكامل لعالم الفرح ، كان مجدُ « آبنة سعد » يكبر ، ولم يكن يقاسمها المجد غير ابنة العمة صالحة .

وابنة سعد تمارس غوايتها على الحجر والبشر في البقالة الحجرية ، ذات الباب الضيق ، المعتمة دائماً .

هناك كانت تتحصَّن ، ولكن فاكهتها كانت عالية دائماً ، ولم يكن قد مسّها كخصر مشتعل بالشهوة . . تبتعد في الزوايا . . وكأن الارض ابتلعتها ، قريبة بعيدة . . بعيدة قريبة ، ولكن لا يد تستطيع لمسها . . كأنها الحلم . . وكأنها الكابوس ، تتجمَّع في نقطة فارغة . . هوة سحيقة تتصاعد . . أو انها تأتي من غابة الصبار . . ناعمة . . جارحة . . ولا يد تستطيع لمسها .

هناك كانت تتحصَّن ، ولكن فاكتها كانت عالية دائماً ، ولم يكن قد مسَّها أحد من قبل غير الاستاذ وليد ، هكذا يقولون ، ولكن من يستطيع البقاء هنا سبع سنواتٍ من أجل آبنة سعد . .

الاستاذ وليد ابتعد كثيراً هذا العام ، ويقال أنها بكتْ حين أُسرَّ اليها أنه لن يعود في العام القادم . .

ذلك اليوم كان الوحيد . . الذي خرجت فيه ابنة سعد من جلدها وتجارة أبيها . . ركضتْ . . ولكن الاستاذ وليد اكتشف ان سبع سنوات كافية ، سبع سنوات دار حولها . . فلما أمسكها . . كان قد بدأ يكتب رسائله لنفسه . .

يصعد الى « بلجرشي » ومن هناك يطلقها باتجاه سبت شمران . . تنحدر الرسائل متأرجحة من أعالي عسير . . مع مياه السيول وصخور السفوح تنحدر . . ثم ما تلبث ان تتسارع .

كان الأستاذ وليد يرقب السيول . . وينتظر سفينته . . ينتظر العالم الذي غادره منذ زمن بعيد . . منذ سبع سنوات ، يعدو باتجاه البريد ، حيث يلتقي الماء . . والصحراء . . يفض الرسالة . . ويعود مزهواً . .

ولكن لم تعد ابنة سعد تكفي ، ولم ترتفع الصحراء . . عن عزلة رمالها . . بقيت هناك قابعة في زوايا الوحشة والنسيان .

اكثر من رجل وامرأة تهامسوا ، كان قد تسرب اليهم ان الاستاذ وليد يحب ابنة سعد . . وان هذا الحب أورثه الجنون ، فبدأ يصعد كل اسبوع باتجاه بلجرشي . .

ـ الى اين يا استاذ وليد ؟

ـ الى بلجرشي . . سأزور أخي . . وهناك بعض الاصدقاء . . وكانوا يعرفون أن الاصدقاء يفرّون قبل الأوان ، يلملمون أشلاءهم ويتدافعون في الليالي المظلمة باتجاه الضوء . . أي ضوء يظهر ، بعضهم كان يهوي . . فتتلقفه الغربان . . وتعيده صوب الشمال . . متشحاً بأجنحتها وبنعيقها المجروح . . وبعضهم . . كان يغالبُ الموتَ . . حتى تنفجر في صدره الحياة . . فيلملم ما تبقى منه ويختفي !!.

هناك . في تلك الزاوية من العالم التي تدعى سبت شمران . . كان الاستاذ وليد يقبع ، محاولاً أن يُبقي على آخر أيامه الطيبة مع ابنة سعد ، ولكن ذلك لم يعد كافياً منذ زمن طويل . .

ركضتْ ابنة سعد . . ولكن الصحراء أكبر من جسدها ، ركضتْ . . ولكن الاستاذ وليد . . الذي أوشك في مساء ما . . في ليلة مظلمة ما ، ان

يبقى الى الأبد ، غادر جسده وانطلق في البر ولم يعثر عليه احد .

ركضتْ ابنة سعد . . باتجاه كل طائر حلَّقَ في ذلك العام باحثةً عن جثته ، ولكن النسور والغربان ، كانت تندفع باتجاهها ترفرف . . فتشم فيها رائحة الدم . . فتلاحقها . . ولكن زمناً هائلاً قد مرّ . . منذ ذلك العام .

تلوّتْ ابنة سعد . . ويقال ان أحداً لم يرها منذ ذلك العام .!. ويقال انها شاخت ، تغضنت وأصبحت عجوزاً . . متصلبة . . ولكن صوتها لم يكبر . . لأنها كانت تنادي دائماً على الأستاذ وليد . . حبيبها .

البعض قال ان ابنة سعد . . عمرها اكثر من مائة عام . . وحتى حين كان الاستاذ وليد هنا فقد كانت عجوزاً أيضاً . . ولكنه ما ان أبصرها حتى غادر جسده . . ولم يعد أحد يراه .

ارتجفتَ في البداية . . كنتَ على وشك أن تخطو باتجاه الزاوية التي يأتي منها الصوت . . مشتعلاً . . مشتعلاً . . ولكنكَ لم تجرؤ على فض هذا السرّ . .

قال لك الاستاذ محمد : سمعت ان من يلمسها . . يختفي . . عليك أن تبتعد عنها ، عليك ان تبتعد ، وضحكَ كثيراً : ولكن الاستاذ محمد اختفى . . وأنتَ تعرف تماماً أنه لم يصل بقالة ابنة سعد . . ولم يلامس ظلمتها .

كان سعد . . يدخل البقالةَ . . فيجدها هناك بين أكياس الارز والسكر وصناديق المعلبات ، تدنو حتى تلامس برأسها كتف « بلوتو » الذي جاء من ميلانو ، أو يد أحد المدرسين ، تتراجع قليلاً . . أما سعد فيبتسم ويدخل غرفة مجاورة . وكأنه كائن من العصور القديمة .

قلت يا « بلوتو » . . تعلّمني الايطاليةَ . . فأعلمك العربية .

هزَّ رأسهُ .

وكنا قد كسَّرنا الانجليزيةَ بقدر ما أُتيح لنا ذلك .

كان الشارع يقترب من سبت شمران ، وأشار أحدهم . . من هنا سيعبر ، فبدأ ذلك في اول الأمر مستحيلا .

منذ عامين والايطاليون يشقونَ الصحراءَ للوصول الى القنفذة ، عامين كاملين . . أما نحن فكنا نصل القنفذة في ليلة ونصف الليلة . . عامان كاملان من أجل الوصول الى القنفذة في ست ساعات !! .

ولم يكن أحد هناك . . يريد إختصار الزمن للوصول إليها بكل هذه السرعة .

ـ ولكن ما ان يصل الشارع المُعبَّد . . حتى تتغير الدنيا هنا . . هكذا قال الشيخ حجر .

اما احمد لطفي فقال : لا أرى مبرراً لشق الشوارع . .

اما المدرسون فقالوا : سنكون جزءاً من العالم من جديد

في حين صمتتْ فاطمة . .

قلت : يا أستاذ محمد يقولون أن العمل في الشارع وصل الآن الى قرية « نَمِرَة » .

قال: وما الذي يفرحك في ذلك . . هناك شارع . . ولكنك لن تستطيع استخدامه الاّ مرةً واحدة ، حين تدخل هذا الجحيم وحين تخرج منه .

فتش الايطاليون عن شيء يشبههم . . فلم يجدوه ، كانت الصحراء واسعة . . . توقفوا في البداية مبهورين : أوه . . الصحراء !!

كانوا مفتونين بهذا الذهب الذي يغطي سطحها ، تشرق الشمسُ ، فيتدافعون باتجاهها ، يتراشقون بالرمال ، كأنهم يتراكضون على شاطىء البحر ، وفي المساء يأخذهم سحر الظلال التي تقتسم اطراف كثبانها ،

فيتدافعون من جديد .

ولكن الايطاليين كانوا قد اقتربوا كثيراً هـذه المرة . . ابتعـدوا كثيراً ، وهناك في تلك الوحشة الكاملة ، أتاهم صوتُ ابنة سعد مشتعلا بالشهوة . . فتدافعوا باتجاهها . . ركضوا في البداية . . وهم غير قادرين على تحديد مصدر الصوت ، بعضهم وصل إلى حدود اليمن جنوبـاً ، وبعضهم ظل يـركض باتجاه الشـرق لولا ان جبهتـه اصطدمتْ بجبـال عسير ، ففـاضت السيول داميةً ، وتفجرتْ الرعود ثاقبةً قلب العالم . .

وعلى الرغم من ان الشركة تعمل على إحضار كل شيء لهم ، من علبة الكبريت حتى زجاجة الويسكي ، الا ان البيرةَ الخالية من الكحول . . كان لها مذاق خاص قربَ ابنة سعد .

ـ هكذا . . كانت تزوم أمامهم كبطةٍ سحريةٍ . . بشعرها المشبع بالطيب وعروق الريحان . . ولكن أحداً لم يرَ وجهها .

قلت : يا بلوتو . . هل تصدق ان ابنة سعد عمرها مئة عام . . هكذا يقولون . وحدثته عن كل ما سمعته . .

فقال : أنت مجنون . . أنتم دائماً هكذا مجانين . . لا يفتنكم شيء مثل هذه الحكايات .

قلت : يا بلوتو . . ولكنّ زمن الخرافات قد ولّى .

قال : أنت تقول ذلك . .

عـلى باب البقـالة وقفنـا . . فجاء صـوتها . . نـاعماً . . عـاريـاً حـد الفضيحة . .

فنـظر الي بلوتو : انت مجنـون . . هكذا صـوتٌ لا يكـون الا لامـرأة حقيقية . . كاملة . . ممتلئة بـالأنوثة . . ورحيق العناق .

ولكن من ذلك الذي تجرأ على إمساك يدها . . أنطونيو . . أم الاستاذ فتحي . . الذي جاء باحثاً عنها من « نَمِره » . .

من ذلك الذي تجرأ على لمس يدها ؟

فجأة انقلب العالم عليه . .

دوى الصوتُ :. فامتلأ به البرّ . . اختبأت الكائنات بعيداً عن هبوب الفضيحة . . انفجر الرعدُ في السماء ـ وتدفقتْ السيولُ . . جاء سعد . . زمجرَ وشتمَ ، ولكنه لم يرفع صوته الى تلك الدرجة التي يسمعه فيها أحد .

ثم هدأ الليل فجأة .

هدأ الليل وكأن حلماً طيباً اخترق صدره . . واستقر في تلك النقطة التي ينتشر منها دوائر أو رماحاً سوداً . هدأ حتى أصبح كأي ليل في العالم . . صافياً . مُسالماً لا يخلو من السكينة . هدأ حتى كدتَ تظن أنك تحلم في غرفة مفتوحة على الدنيا . . وعلى شارع ضيق طافح بالتعب . . ولكنه لا يخلو من البراءة ،، عالم كذلك العالم الذي يملك الانسان فيه قدرة على الابتسام .

لعل البرودة تسربت اليك من خلال رمال الغرفة ، لقد نسيت حتى النمل الابيض . . وأوشكت ان تنسى العاصفة .

لحظة سلام طوقتكَ بطيور ملونة . . وأغان دافئة ، تململتَ . . انقلبتَ مرة ثانيةً . . سحبتَ الغطاءَ . . باتجاه رأسك . . تكومت واضعاً رأسك قرب ركبتيك . . وبدت لك ابنة سعد ككابوس بلا ملامح . . بلا تفاصيل . . بلا أرض .

لماذا لا تواصل الدنيا أُلفتها . . لماذا تقطعها دائماً بالصقور والصعو . . والعواصف . . وابنة سعد . . والنمل الأبيض . .

قذفتَ الغطاء بسرعة . . جلستَ . . كنتَ على الأرض . . امتدت يدك بذعر لامستْ الرمال . . انتصبتَ واقفاً . . خطوتَ خطواتك الفاصلة . .

أصبحت فـوق السـريـر . . استلقيتَ . . حـدقتَ في السقف لم تبصـر الخفافيش ، تحركتْ يدك باحثةً عن الكشاف لم تجـد . . ولم تعرف كم من الوقت مر عليك وأنتَ نائم على الرمال .

ـ كنت أقول للاستاذ محمد ان النمل الأبيض لا يستطيـع تسلّق ارجل السرير في حالة واحدة ، أن تضع هذه الأرجل في علب الفول الفارغة . . لن يستطيع بعد ذلك ان يتسلق علبة الصفيح ويـدخلها . . ثم يتسلق أرجـل السرير ، لن يستطيع ، وقد قال الحاج سعود . . إذا مـا وضعتَ شيئاً من الزيت أو الكاز . . في داخل العلبة فانه لن يصلك ابداً . .

كان عليك ان تعيد رجليك الى الارض . . بشجاعة . . قبل ان تصل الى جالون الـزيت . . أو صفيحة الكـاز . . وجدتَ نفسـك تقفز . . فـرَّ خفاشٌ . . راحتْ يدك تقلّبُ الزاوية . . الطنجرة . . الطباخة .

هنا كان الزيت . . وهنا كان الكاز . . ولكن لا شيء هنا . . حاولتَ ان تتذكر آخر مرة عبأتها فيها الطباخة بـالكاز ، أو استعملتـها فيها الـزيت . . حاولتَ . ولكن . .

من بعيد . . كان صوت ما . . ليس غريباً يصل اليكَ . . ضعيفاً واهناً في اول الامر . . انتصبت اذناكَ . . خلتهما تتحركان . . كنت تريد ان تحدد مصدر الصوت بدقة .

: لا . . ليس من ثريبان . . إنهم قادمون من سبت شمـران . . إنها الدراجات النارية . . داهمك الخوف . . تحفزتَ . . خطوتَ باتجاه الباب . . ثم عدتَ .

: اذا خـرجتُ من هنا أبصـروني ، درتَ حـول نفسـك . . مـرةً . . اثنتين . . سقطتَ . . وقفتَ من جديد خطوتَ باتجـاه الشباك . . هـززتَ القضبان . . هززتها حتى تدفق الدم حاراً من كفيك .

صرخت : لقد قلتُ لهم لا اريد ان أراكم . . قلتُ لهم ذلك . . ولقد وعدوني .

. . التفتُّ الى السقف . . انتم تشهدون على ذلك . . أنتم تشهدون . .

وكنت تشير الى الخفافيش .

اقتربَ الصوت . . حاذى البيت . . ولكنه لم يصعد التل الصغير . . واصل آنطلاَقهُ . . آخذاً بالابتعاد شيئاً . . فشيئاً . .

قلت : لعلهم أخطأوا الطريق . .

وعلى الرغم من ان الصباح كان قد اقترب . . وأن وصولهم حينئذ سيكون أسهل . . الاّ انك تمنيتَ ان يندلع الصباح الان .

وصرختَ : سيدي الفجر لماذا تأخرت؟ .

قال بلوتو : أتظننا قادرين على اجتياز العتبة .

ولم يكن بينك وبين ابنة سعد مسافة . .

قلت : يا بلوتو . . من أين أتيت .

قال : من ميلانو .

قلت : من ميلانو . . الى هنا .

ولعله لم يفهمكَ . . ولعلك لم تكن تبدي استغرابك بلغةٍ تُفهم . .

انفجار بشري ما حدث . . انقلب كل شيء الى ضده ، في البداية تدافعوا باتجاه بقالة سعد ، فأخذ سعد كلّ شيء ، أما هم فلم يصلوا .

قال بلوتو : أتذهب معنا اليوم .

قلت : أين ؟

قال : لا عليك . . أتذهب ؟

قلت : أذهب . وكل ذهابٍ فيه مطرقة تكسرُ حدة الساعات .

تجمّع الايطاليون في الساحة الواسعة . . أمام معسكرهم . . حدقوا في ملامح بعضهم البعض ، ثم ركضوا باتجاه السيارات . . فركضتَ حائراً .

دارتْ المحركات . . عشرات المحركات دوّتْ ، في وقتٍ واحد . . ثم انطلقت في كل الاتجاهات . . شيء ما كان يدور في رؤوسهم . . ويشظيها . .

توقفتْ السيارات . . تحلّقوا . نظرتْ البهائم حولها . . أيقنت أن شيئاً ما يحاك ضدّها . . خفياً . . غامضاً . . ولكن اقترابهم منها جعل الامر أكثر وضوحاً ، بحثت عن منفذ في هذه الدائرة البشرية المتقدمة ، كانوا يطمئنونها . . ولكن الفزع تصاعد . . سكن عيونها . . ورقابها . .

لقد أوشكت أن تصبح برية ، لا احد يستطيع الامساك بها . . مرّ زمن طويل . . وهي منسية هنا ما الذي يجعل هذه الوجوه الغريبة البيضاء تتقدم باتجاهها بأعين لامعة . . صامتة . . ولكنها تخبىء الكثير من الجنون . .

تحلّقتْ حول نفسها . . ولكن رؤوسها كانت ما تزال مرفوعة . . ضاقتْ الدائرةُ . . فعرفتْ ان لا مفرّ . .

فجأة لوّحتْ الايدي البيضاء بالحبال . . فتداخلتْ البهائم في بعضها . . جسداً واحداً أصبحت ، هذا أقصى ما تستطيع ان تفعله . . وسيلتها للدفاع عن نفسها . .

حلّقت الحبالُ في الهواء . . هبطتْ باتجاه الاعناق الحذرة . . ولكنها لم تستطع الالتفاف على أي منها . . حلّقت مرةً أخرى . . تحركتْ البهائم فزعة . . أوشكت ان تتفرق . . ولكنها كانت هناك قد استقرت . . وسطَ الحلقات التي أخذتْ تضيق . . قفزتْ . . ركضتْ . . ولكن كل شيء

أصبح ضيقاً . . المدى والصحراء . . والجبال اقتربت اكثر من بعضها فأوشكتْ أن تسد مجرى الوادي .

دفعوا البهائم باتجاه صناديق السيارات خمس أو ست بهائم استقرت هناك وحيدةً . .

تودِّعُ البرّ الذي أوشك ان يكون حياتها . .

هدرتْ المحركات من جديد . .

وهناك . خلف الساحة الواسعة . . كانت الجرافات قد هيأت حفرة كبيرة واسعة . . كمقبرة جماعية . . هبط الرجال والبهائم . . ووقفتَ حائراً من جديد .

فتدافع العمال . .

وصرخ بلوتو بفرح يناديك : هيا .

تضاحكوا في البداية . . وهم يتلمسون فروجها . .

ولكن موجةَ بكاء داهمتهم . .

فانكسروا .

من بعيد جاء صوتُ ابنة سعد . . انتفضوا . . اندفعوا بسراويلَ نصف مرفوعة . . باتجاه الصوت . . اندفعوا . .

كان البعض يركض الى الشرق . والبعض الى الغرب . . والبعض الى الشمال وكان الصوت يملأ الصحراء بلهيبه السري .

عندما لاحتْ الآلية الاولى للشركة الايطالية ، التي تعمل على شق الطريق من جدة حتى « محايل » جنوب القنفذة انطلق أهالي سبت شمران وثريبان ونقمة والسواد راكضين ، كل يمسك طرف ثوبه بأسنانه التي لا يبارحها المسواك .

نساء . . اطفال . . شيوخ وفتيات بخصور ضامرة . . وينخرهم السُلُّ ، تجمعوا ، ودار حديث متشابك لا يختلف كثيراً عنِ وديان تهامة التي تبدأ من أعالي عسير ، وتمتد حتى قدمي البحر الاحمر مُشكِّلَةً هذا العذاب اللاذع ، هذا الجفاف الحارق ، الذي لا يترك كائناً حياً او جماداً الا ويلقي بظله عليه .

منذ شهور طويلة امتدت ، حتى باتت آثارها واضحة في أحاديث الناس ، لا يعقد مجلسٌ أو تقام « عَرْضَةٌ » أو دعوة ، الا ويكون موضوع الشارع حلم السهرات . وتعدى الحديث ذلك حتى بات جزءاً أساسياً من تلك الاحاديث الفجة لمفتشي التعليم الذينَ يُغيرونَ على القرى مساءً وصباحاً ويخلّفون وراءهم كلماتٍ جميلة في سجل المدارس ، وعظام الخراف التي جردوها من آخر ما عليها .

كيف أصبح الشارع بهذه الأهمية . . وكيف احتل هذه المسافة الشاسعة ، البر . . السكان . . والمدرسين الوافدين من الشمال وكيف امتلك كل هذه القدرة على سرقة الضوء من أكثر الاحداث ألماً .

حين لدغتْ المدرسَ المصري ابراهيم الدمنهوري أفعى ، قالوا : إن عدم وصول الشارع في الوقت المناسب كان سبباً في وفاته .

وحين انقلبتْ سيارة الجيب وتوفي المدرس الفلسطيني حسام أبو علي قالوا : ان عدم وصول الشارع في الوقت المناسب أدى الى وفاته .

أما احمد عثمان المدرس السوداني القادم من فقر الخرطوم ، فقد قال : لن انتظر الشارع لكي ينقذني . . وغاب طويلاً ولم يعد . .

وكان صوته يعبر البحرَ كل ليلة أخضر كالطفولة . ولكن الشارع بقيَ ذلك الموضوع الذي ما آنفك يتجدد وينتشر في قلوب الاطفال حاملاً الحلوى . . وفي أشجار الدوم حاملاً السكر والتألق . كل واحد من سكان تلك الشعاب كان يحمل في رأسه وعاءً صغيراً يملؤه بما سيدره الشارعُ عليه من أرباح وتسهيلات ، حتى ان البعض أكد ان وصول الشارع المنتظر . . هو المخرج الوحيد مما تعانيه القنفذة من المجاعة والحُمّى والتخلف . بقدومه سيخضر البر ، ويهاجر الناموس ، وتبتعد الذئاب والثعالب والافاعي ، ويتبدد الظلام !! .

ولكن أبا معيض لعن الشارع ، والذين يعملون فيه ، ولعنَ مخططيه علناً ؛ ، وحين استدار لعن الحكومة بصمت .

فهو يعرف أن وصول الطريق المعبد الى سبت شمران ، سيجعله يفقد ميزاته كصاحب محطة بنزين مكونة من صهريج ملقى على كومة من الرمل ، وحفرة تدخل فيها السيارة التي تريد التزود بالوقود ، كأنها داخلة الى موقع عسكري على الخطوط الامامية .

لقد أجرى أبو معيض حساباته بدقة ، فأحس بقدوم محطات البنزين المتطورة التي ستملأ الطريق حتى حدود اليمن جنوباً .

أيام طويلة مرت . قبل أن يصل هذا الكائن الاسود العملاق الى أبواب

القرية . . هذا الحلم الذي بدد العتمة بحلكته .

وعندما وصل الشارع الى منتصف السبت ، أخرج الشيخ حجر كلاشنكوفا من مخلفات حرب الشمال ، تلك البنادق التي وصلت عبر الصحراء بواسطة المهربين ، ثبتَ البندقية وأفرغ مخزناً كاملا في جسد زحل .

دبتْ حركةٌ غريبة في أطراف القرية ، ما لبثْ ان تجمعتْ في ساحة مدرسة الطلاب . . وانفجر الفرح عرساً كبيراً . . تقافز فيه الشباب الى السماء كخيول مجنحة وهم يلوّحون بالعصي ، ودار الاخرون بالرايات مُشكِّلينَ دائرةً كبيرة امتلأت بعد ذلك بالارز الذي انطلق الجميع يأكلونه بشراهة بعد يوم من الفرح ، وعندما أُحضرت سدور اللحم ، كان الكثير من الارز ما يزال ملتصقاً بأكف الراقصين ، الذين أمسكوا بقطع اللحم من كل جانب .

وهمس أبو معيض وهو يلكز أحمد لطفي طالباً منه الامساك بقطعة اللحم حتى يتسنى له اقتطاعها :

ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي سأستفيده من وصول الشارع ، وحين انفضوا لم ينسَ شيخ سبت شمران ان ينادي مجموعة من الشباب ويطلب منهم السهر لحراسة الشارع . أما هو فقد إستجمعَ طرفي عباءته وانطلق الى عروسه الجديدة الصغيرة .

هكذا كان يقول الحاج سعود دائماً : لم نشارك في فرح لأهل السبت ، الا وظنوا ان ثمة مؤامرة نحيكها ضدهم ، واننا لم نرقص الا لغرض في نفوسنا .

ـ لماذا يا حاج ؟

ـ هي أيام الحرب البعيدة التي رحلتْ . . ولم تلملم أطرافَها السوداءَ من قلوبنا ، ثم جاء المال ، هذه الحرب التي لم تزل مستعرة .

غاب المدرسون تلك الليلة . . ولم يحضر سوى أحمد لطفي ، كلهم قبعوا هنالك في الغرف الحجرية . . أطفأوا الفوانيس ، وجلسوا في العتمة ، أتراهم أدركوا ان القنفذة لم تزل كما هي ، جارحة كحجارتها ، جافة كبرها . .

أتراهم أدركوا ذلك . .

في تلك الليلة كان البعوض يدور في فضاء الغرف الحالك ، ينشر الرعب ، طائراتِ الوباء الصغيرة القاتلة ، ! طائراتِ الحُمّى والموتِ المبكر .

وكانت الذئاب تعوي على أطراف سبت شمران وثربان ونقمة والسواد ، أما الجوع فقد فرّ تلك الليلة ، ولكنه لم يبتعد كثيراً .

أحمد لطفي وحده الذي حضر ، ولماذا لا يحضر ، ذلك الذي لم يترك فرصةً تمرّ الا واقتنصها لم يترك لقمةً في يد الا وأغار عليها ، ما دام باستطاعته ذلك .

منذ ان وطأ برَّ القنفذة ، خرج على الناس بهذه الصورة ، ومنذ اللحظات الاولى بدأ يعمل على بناء امبراطورية الجشع . . أسوأ من في البرّ كانوا أصدقاءه ، الاكثر نفوذاً كانوا اصدقاءه .

مع جابر رئيس الشرطة أحال تلك البقعة الجرداء من الارض التي يسمونها مطاراً ، الى بار ، الخمور جاهزة دائماً واحمد لطفي يختفي ثم ما يلبث ان يأتي .

كل من في السبت كانوا يعرفون ، ان كل غياب له يشير الى قرية « نَمِرَة » . . من هناك يحضر الخمر الذي يقطر ، سيارة خاصة تنتظره ، يحمل الزجاجة ويعود ، وفي الليل يدوي ارتطام الكؤوس والاغنيات :

يا غلام المُدام والكأس والطاس .
يا غلام المدام يا أُنس نفسي

هيىءْ لنا مكاناً كأمسٍ
وآجلبْ الشمسَ من غياهبِ الدهرِ
واملأ بنورها كل كأسٍ
وآسقنا يا غلامُ حتى ترانا
لا نطيقُ الكلام الاّ بهمسٍ .

ومن كان يستطيع ان يلقي القبض على رئيس الشرطة .

مرّ النصف الاول من السنة طويلاً ، لم يحدثه أحد ، وحتى أُولئك الذين كان لا بد من ان يستأجروا إحدى غرفه ، كانوا يرسلون الأُجرة مع أُناس آخرين من أبناء القرية ، وحيداً كان ، ومفتوناً بوحدته ، وينهش بلذة ذئبية حتى ان سكان القرية ، لم يعد منهم من يحدثه الا نادراً ، وفي تلك الليلة ، ليلة الشارع ، كان وحيداً أيضاً ولكنه كان جريئاً الى تلك الدرجة التي يأكل فيها ضحيته أمام كل العيون .

عادتْ الذئاب لتطلق عواءها ، فجاءَ متقطعاً ، وحشياً كجوعها ويبدو أن رياح المساء التي كانت تهب ناعمةً . . كانت تحمل رائحةَ الارز واللحم إلى القمم العالية . .

هي ليلة غريبة في هذا البرّ .

تسلل أحمد لطفي الى عشة حنش ، كان يعرف أن حنشاً سيكون بعيداً ، بعيداً ، والشهوة تتصاعد أو تنفجر في جسده .

ـ ولماذا لا تتركني أذهب اليها ، وأفعل هذا الشيء عنك ؟ كان صوت جابر يعبر الفضاء ، يخترق أذني أحمد لطفي ، صدره ، ويستقر في الجمجمة دوائر تتوالد وتتسع .

لم يكن من الصعب الوصول الى « العشة » ، ها هي هـادئة ملتصقة بالحوانيت التي تنتظر يوم السوق ، ها كل شيء هادىء .

وحده القلب ينبض بصخب ، حتى يكاد يتفجر خطوات قليلة ممتلئة بالاسئلة ، وينتصب الباب خشبياً ، والجدار المغزول من القش بدائياً وطيباً .

ووحدها تنام هناك .

الهدوء يغمر العالم والساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، « وعَلْيَه » ، شقيقة حنش تنام ناعمة كجدول ، سمراء كليلة صافية وبريئة كقرنفلة .

كان احمد لطفي قد تمدد بجانبها ، امتدتْ يده وداعبت وجهها ، ثم انزلقتْ أكثر فداعبت صدرها .

هل هو الحلم ؟

تثنتْ « عليه » فانتشرَ فخذاها كحقلٍ من القمح ، امتدتْ اليدُ المرتجفة الى أعلاهما .

هل هو الحلم ؟

وقبل ان تدرك « عليه » ما حدث ، كان الحلم يكمل دورته ، أحست بثقل جسدِ أحمد لطفي :

لا يمكن أن يكون الحلم ثقيلا هكذا .

صرختْ . صرختْ . صرختْ .

اطبقتْ يده على فمها . ولكن جسده كان قد تيبسَ من جديد ، كان ينظر مشدوهاً الى الجسد النافر دون ان يستطيع شيئاً .

صرختْ « عليه » من جديد .

البيوت بعيدةٌ . ولا من يسمعك الان غير الحوانيت المغلقة في انتظار يوم السوق .

صرخت ثانيةً ، وسمعوا في النهاية فهبوا ، كان احمد لطفي قد اختفى ،

وكانت والعتمةَ وحدهما .

قالوا : من؟

قالت : أحمد لطفي .

قال جابر : خسئت يا كاذبة .

وحين ذهبوا الى أحمد لطفي وجدوه نائماً . وما زال جابر يردد : خسئت يا كاذبة .

قالت القرية : نحققُ في الأمر .

وأعاد جابر : خسئت الكافرة .

وأوشكوا ان يقيموا عليها الحد ، لولا تدخل الشيخ حجر الذي قال : اتركوها ، امرأة تحلم ، وكان يعني اتركوها لي .

منذ زمن بعيد لم تستطع رائحةُ اللحم ان تصل الى تلك الجبال السوداء ، منذ زمن بعيد .

ولكن لا شيء بقي في تلك الساحة . الأرز اختفى في البطون الجائعة ، واللحم كان العرس الذي عاشه الجميع حتى النهاية ، أما العظام فانها رحلتْ في اكياس ورقية ، بأيدي سكان سبت شمران وثربيان ونقمة والسواد ، باتجاه الأفواه الصغيرة .

هي عادة لا يخجل منها الفقراء هنا ، يجمعون العظام ويعودون بها الى صغارهم ، حيث يطبخونها ثانيةً ، ولماذا يخجلون ما دام سكان البرّ كلهم هكذا .

أيتها القنفذة . . أيتها العظام التي طبخها الناسُ آلاف المرات ، آلاف السنوات .

من بعيد تطلعت الذئاب ، هي ليلتها أيضاً ، ولماذا لا تكون ليلتها الهواء

مشبع برائحة اللحم ، وسبت شمران تستجمع الحجارةَ حـول جسدهـا ، والصمت غابة العواء الآمنة .

من هناك بدأت تندفع ، كالمياه من أعالي عسير ، تندفع جماعات كبيرة لاهثـة ، مصوبـة نظراتهـا الى السفح ، الى تلك العتمـة التي تثقبها بعض الاضواء .

في ساحة المدرسة دارتْ ، لم تجد شيئاً ، رائحة فقط ، حفرتْ بأرجلها الارض ، قلّبت الحجارة الصغيرة ، رائحـة الطعـام تملأ الـرمل ولا شيء يؤكل . .

أكثر من ذئب غرس أنيابه في ذرات الأرض ، لا شيء . .

توقفتْ الذئـاب، فجأة توقفتْ ، وبدأ فصل من الجنون يجتاحها ، دارت حول نفسها ، دارت ثم تبعثرتْ وسط القرية في مجموعـات صغيرة ، لقـد انتصر الجوع عـلى الخوف ، بـدأتْ تقفز من فـوق الاسوار نحـو ساحـات البيوت ، وتحفر تحت الابواب متتبعة رائحةَ العظام ، أحستْ سبت شمران بالهجوم ، فنهضت ، الأصوات مألـوفة ، والبنـادق جاهـزة دائماً في انتـظار الثعالب والضباع والأفاعي . والبلطات . . ذلك السلاح الفردي التاريخي ، ملقى دائماً تحت الوسائد حاداً ولامعاً .

موجة طاغية أفاقت مرة واحدة ، هل كان الناس يخشون أيضاً على تراب ساحات بيوتهم وحجارتهم .

قرية بأكملها اندفعت خلف الذئاب ، خرج الشيوخ والاطفال والنساء والفتيان ، وخرج المدرسون ، الذين وقفوا في البداية على عتبات البيوت ، ثم لم يملكوا الا ان يكونوا مع القرية .

كـل شعب البر آتحـد في صرخـة واحدة ، قبضـة واحـدة ، وليلة من الرصاص .

وحده أحمد لطفي وقف على باب غرفته متكئاً على الحجارة ، التي لم تزل تختزن الكثير من جحيم النهار .

ولا أحد يعرف من أين وقعت تلك الضربة عليه ، لا احد يعـرف ، ولكنها كانت الفاتحة للكثير من العصي ، التي بدأت تأكل جسده ، وهو يفر أمامها كذئب تخلّف عن قطيعه .

كانت الذئاب قد وصلت الى أطراف القرية ، وكان أحمد لطفي الذئب الأخير في هذا القطيع ولكنه ما لبث ان احتمى ببقية الذئاب واختفى بينها .

ظـلَّ السكان والمـدرسون يـلاحقونها حتى سفـوح الجبال . . قبـل ان يستريحوا على الصخور لاهثين لقد انتصرت القرية .

أما احمد لطفي فقد اختفى للأبد .

قال البعض ان الذئاب أكلته في تلك الليلة ، وأقسم بعض الرعيان أنهم رأوه يتجول بين قطعان الذئاب أكثر من مرة .

في البداية قلت : يا شيخ حجر ، نريد ديكاً .

قال : تذبحه ؟

قلت : لا . . نريده لان لدينا دجاجتين .

قال : هذا سهل ، لدينا ديك يصلحُ لدجاجتيك .

قلت : وهل هو كبير ؟

قال: أجل .

قلت : وفارع ؟

قال : أجل . . إنه بطول « عون » .

قلت : وكم تريدونَ ثمنه ؟

قال يا أستاذ محمد . . هذا ليس بيننا .

ولكنه أغار على ورقة الخمسين ريالاً ما أن ظهرت بين أصابعك .

. . لم تكن في تلك الايام قد تحدثتَ مع العمة « جرادة » ، التقيتها أكثر من مرة على البئر ، كنتَ تلقي السلام ، فتسارع هي الى حث حمارها على المسير ، فينطلق باتجاه العشة ، وتبقى نظرة الغضب مرتسمة في عينيها ، في داخلك ، حتى بعد ان تختفي .

أما أنتَ فكنت تبحث عن وسيلةٍ ما تعيد للبر الذي يترامى أمام الغرفة طيبةَ تحيةِ الصباح التي يلقيها الجار على الجار .

في البداية تقدمتَ منها ، كان قد أنهكها التعب ولهيب الشمس ودلـو الماء الذي بدأ ينزلق من يديها بعد ان وصل الى منتصف البئر ممتلئاً ، سارعتَ اليها وقد بدأتْ قامتها تنحني ، قلت: إني أمد اليك يدي يا عمة جرادة .

نظرتْ في وجهك لحظةً طالتْ ، ثم تركتكَ تقبض على الحبل ، أما هي فقد أسندت ظهـرها عـلى جذع شجـرة الدوم الكبيـرة وتوغلت في صمت عميق ، في حين حملتْ نسمةٌ وحيدة همسةً انطلقت بألم : هذا آخر مايمكن أن اتصوره يا غبشان .

وغادرتك العمة جرادة دون ان تقول كلمة ، ولكنك قلت : ليتنا لم نأت هنا يا عمة جرادة ، ربما كنا أرحناك من كل هذا التعب .

وفي ظهيرة اليوم التالي جاء جوابها :

: يا ولدي . . ليس الذنب ذنبك ، ليس الذنب ذنبك .

حملت لها وعائي الماء ثبتهما فوق ظهر الحمار .

قالت : سلمت يداك يا ولدي .

وبدت طيبة . طيبة كأمك .

لم تكن تعرف حتى ذلـك الحين ، السبب الذي يجعل الدجاجتين غير قادرتين على ان تبيضا ولو بيضة واحدة . . مجتمعتين !! .

وكان البيض يصل من جدة لحماً ، أما ظاهرة العفن فانها حاصرتك في أول الامر بقسوة ، حين فتح الاستاذ محمد الوعاء الزجاجي الذي وضع فيه نصف كيلو من الجبنة البيضاء بالأمس .

كان الماء اخضر ، وأكثر من بقعة سوداء تطفو على سطحه .

لم تكن الشمس قد اشرقت تماماً ، ويومها مضى الى السرير المجاور ، بعثره ، انتفض صرخ فجأة . قال : انظر . وهو يدفع الوعاء باتجاه وجهك .

قلت : وما الذي تريد قوله . . لقد أصبحت فاسدة .

قال : ولكننا أحضرناها بالأمس ، بالامس فقط ، ألا يعني ذلك شيئاً بالنسبة لك ؟

ومن بين عينين نصف مغمضتين قلت : هذا يعني أن الحرارة مرتفعة هنا .

ولكن الأستاذ محمد لم يقتنع بالاجابة . خطا باتجاه الباب ، لوّح ، ثم ألقى بالوعاء وما فيه إلى ابعد ما يصل غضبه . وسمعتَ انفجار الزجاج بوضوح .

أخذ الاستاذ محمد نفساً عميقاً ، وكأنه أحرق كل العفن المتواجد على سطح الأرض ، ثم استلقى على السرير .

قلت : وهل استرحتَ الان .

لم يُجب . . ألقى عليك نظرةً . ثم خرج .

بعد يومين كنت تحلم بأن ترى أيّ طعام طازج .

قلت : نشتري دجاجتين . واحدة لي وواحدة لك ، فلم يعارض ، ولكن بَقي الديك . وها هو الان يدور في فناء الغرفة كنمر !! .

قلت : كنت أعتقد ان الدجاجتين لا تبيضان بغير ديك ، وها هما لا تبيضان به .

ولكن صوت العمة جرادة عبر الحرائق ذات يوم : يا أستاذ محمد ، دجاجتك باضت في العشة قلت : وأين البيضة ؟

قالت : ها هي فشكرتها .

ووسط احتفال كبير بأول بيضة ، قلت : هذه سنتركها للذكرى . لن نأكلها .

ضحك الأستاذ محمد .

تجاهلت سخريته وسألتَ : ولكن لماذا لا تبيض دجاجتنا في بيتنا ؟

قال : أوَ لمْ ترَ جراح ديكنا ؟

قلت : لا . . وما الذي جرحه ؟

قال : ديك العمة جرادة .

قلت : وهل اقتتلا .

قال : مرة واحدةً . وبعدها أصبحت دجاجتانا تحت حمايته .

قلت : كيف ؟

ولكنه لم يجب ، وعرفت أن عليك ان تبعد الديك عن البيت لمدة اسبوع ، بعدها يعود الى فتوته الاولى ، بعد ان يكون قد نسي هزيمته . يعود ليقاتل من جديد . والا يبقى منهزماً مدى الحياة .

قلت : نرسله الى « عمارة » .

وعدتَ به بعد اسبوع ، تقاتل الديكان ، وانهزم رب دجاجتيك ثانيةً .

قلت : يا عمة جرادة ، هل تبيعين الديك لنا .

قالت : وكيف ذلك يا أستاذ . ودجاجاتي ؟

قلت : ديكنا يكفي !

فضحكت العمة جرادة حتى فاضتْ الدموع من عينيها ، ولكنه لا يصلح يا استاذ . لا يصلح .

وما ان كانت الظهيرة تحل ، حتى تنادي العمة جرادة : يا استاذ محمد .

وتخرج . . أو يخرج الاستاذ محمد ، وتكون البيضة الساخنة بين يديك .
ولم يدم ذلك طويلاً . جاء الديك الأحمر ، ديك العمة جرادة ليسوق الدجاجتين من داخل الغرفة ، صغيراً كان ، لا يصل طوله الى فخذ الديك لديكما ، وهذا ما كان يثير حنقك ، القيتَ له ببعض الذرة ، راح ينقرها ، أغلقتَ الباب ، إستمر بنقرها ، ثم اغلقتَ أحد الشباكين ، أحس بأن مؤامرة تحاكُ علانيةً ، وقبل ان يصل الى النافذة الشرقية كنت قد أغلقتها .
طاردته من زاوية الى أخرى ، وفي آخر امر استقر بين بديك مهزوماً . ولكنه متمرد .

في احدى أرجل السرير أوثقته ، فتحتَ الباب ، انتظرتَ طويلًا . وكان يقاوم بكل ما أوتي من قوة .

وأخيراً جاء ، جاء ديكّكما المهزوم ، وما أن رأى الديك الاحمر حتى تراجع ، ولكنه عاد وتقدم ثانية بحذر لا يخلو من الخوف . ويبدو أنه تأكد من عجز عدوِّه عن الحركة فانقض كالسهم ، اقتتلا ، سال الدم ، ولكن المعركة كانت قد حُسمت ، بالحبال لا بالقتال .

بدأ ديك العمة جرادة يبحث عن مخبأ ، بعيداً عن منقار آحتد ، ومخالب استجمعت هزائمها في معركة أخيرة فكان لها النصر ! .

بهدوء اقتربتَ ، حللت وثاقَ ديك العمة جرادة فانطلق بخطى متكسرة ، ثقيلة ، وبدم يغطي رقبته ووجهه وجناحيه ، وديكك يتابعه .

جاءَ الصوتُ : يا استاذ محمد . .

لم تُجبْ في البداية .

ـ يا استاذ محمد . .

خرجتَ والوزرة حول وسطك .

ـ ماذا يا عمة جرادة .

ـ ديكك عقر ديكنا يا استاذ .

قلت : دِيَكَةٌ وتتقاتل ! .

بعد يومين نادت العمـة جرادة . . يـا استاذ محمـد . . . هل تشتـري الديك .

قلت : « بكم» .

قالت : بخمسة وعشرين ريالاً .

قلت : اشتريته . .

لقد كنتَ تعرف ان ذلك سيحدث . . فالسكان هنا يتشاءمون من اقتتال الديكة المستمر ، ولكن تشاؤم العمة جرادة كان أكبر حجماً مما توقعت .

تلك الليلة أكلتها لحماً قاسياً . . لم تنضجه النار . . ولم تنضجـه حرارة الصيف . .

: هل استرحت الان ؟ .

قـال الاستاذ محمد .

قلت : أجل . . من الان نستطيع ان نأكل بيضاً طازجاً . .

ولكن الدجاجتين السمراء والبيضاء واصلتا الـذهاب الى عشـةِ العمة جرادة . . وفي ايام متباعدة . . كانت العمة جرادة تنادي . . هـذه البيضة لكم . . ثم تباعدتْ الايام فأصبحتْ الاسـابيع بينهـا وتباعـدت فأصبحت الشهور بينها . . وتباعدت .

حتى أنتَ . . اكتشفتَ ان هنالك من يشبه الأستاذ محمد أكثر منكَ ، فاطمة . . أجل . . فاطمة لم تكن في يوم بحاجة أن يذكّرك بها أحد ، ولكن فاطمة التي آخترقت الظهيرةَ كسهم نازف في تلك المسافة المحصورة بين مخفر الشرطة وبين الامير غيّرتْ كل ذلك .

كأن كل ما غزلته الايام من تعب ، وما ابتكرته من خراب ، وما أشعلته من غربة وقرب ، كأن كل ذلك لم يكن كافياً .

لم يمهلك اللقاء المفاجىء فرصة التقاط الحروف ، لبناء الأسئلة ، عن هذا الذي يحدث حولك . . يحدث فيك .

إمرأة بعباءة سوداء ، في وسط الصحراء ، يطوقها الرمل ، الوحشة . . ولم تزل تلتف بهذه العباءة ؟

بحثتَ عن جسدك فلم تجده ، ولم يكن هناك غير فاطمة .

هل هي فاطمة فعلاً ؟

رأيتها . . وأوشكت أن تُـقْسِمَ أن ثمة علاقة كبيرة تربطك بهذه المرأة . . علاقة غامضة ، نبتتْ في هلامية الحلم وكبرتْ على أرض الواقع .

تساءلتَ . . ولماذا لا تتساءل ، كل ما يدور حولك يشير الى ذلك ، هذه

ليست فاطمة التي تحدث عنها الاستاذ محمد ، ليست هي ، ولكنها ابنة أبي محمد !!

هي اذن . .

ما الذي يحدث ؟

صرختَ : يا فاطمة . . وانطلقتَ خلفها ، لكنها لم تلتفتْ ، وصلتَها ، هززتَها من كتفها ، هذه حركة لا يمكن أن تحدث هنا ، هززتها حتى سقطتْ العباءةُ عن رأسها وكتفيها .

ـ يا فاطمة . .

حدقتْ في وجهك ، غالبتْ ملايين الدموع في عينيها ، ولكن دمعة واحدة سقطتْ آه ، فهوت الكرة الارضية بمن عليها .

لحظة واحدة . . ترامتْ بينكما عمراً طويلاً ، غياباً لا يملك الحضور ، حضوراً لا يملك الهواء .

انحنتْ . . تناولتْ العباءَة . . استدارت . . بعينيها الضائعتين ، كانت مكشوفةَ الرأس ، خطت خطوتها الأولى . طرف العباءة بين اصابعها ، أما لونها الليليّ ، وصمتها الكالح ، فقد كانا يغطيان الارض ، ثم ينسحبان فوقها كجثتين لا بدّ من التخلص منهما بعيداً عن دائرة الحياة ، مضتْ فاطمة ، كان الاتجاه مقفلاً ، والعباءة تكنس الأرض كرايةٍ سوداء . . والغرفة الصغيرة تنتظر الجسد الجاف .

فجأة تنبهتَ . . انتفضتَ . . كأنك تستيقظ فتجد نفسك بين رحى طاحونة هائلة . . بب . . بب . . بب . . بب .

لم تقدر على النظر حولك . . ولكن . . هل ثمة أحد ؟

قالت : لا احد .
نظرتَ . . ولم تكن فاطمة .

حدقتَ . . ولم تكن أنت .

. . . . . .

. . . . . .

ـ في ذلك الصباح جاء الاستاذ محمد .

* أي صباح؟

ـ لا أدري .

في ذلك الصباح . . ولم يكن الصباح تماماً . . كانت الظهيرة .

في تلك الظهيرة .

* أية ظهيرة ؟ .

ـ لا أدري .

في تلك الظهيرة . . ولم تكن الظهيرة تماماً . . كان المساء . .

* أي مساء ؟

ـ لا أدري .

في ذلك المساء . . ولم يكن المساء تماماً . . في ذلك . .

* أيّ . . ؟!!

ـ لا أدري .

جاء الاستاذ محمد رفرفَ على باب الغرفة ، ضرب الباب بجناحيه ، نهضتُ وفتحتُ الباب ، كان المدى موحشاً ، ولم يكن هنالك من سبب يدعو لكل هذا الفرح .

دار دورتين حول الغرفة ، حلّق في فضائها ، ضربَ الهواء بصدره

الواسع وريش جناحيه المضيء فدفع الكثير منه الى صدري ، فامتلأتُ بالحياة .

لقد مرّ أكثر من أسبوع ، قبل أن تجرؤ الخفافيش على العودة . . الى نصف الغرفة المظلم .

ـ اسبوع كامل بلا خفافيش .

قلت • ما الذي يحدث؟

قال : لست أدري!!

قلت : وقد بدأ هذا الفرح المفاجىء يغيظني .

: علينا أن نكفّ عن هذه اللا أدري ، لنتحدث بلغة يفهمها كلانا . .

قال : فاطمة!

قلت : كأنك ما زلتَ تقول لست أدري .

قال : ابنة أبي محمد .

وكان اكثر من « أبي محمد » في هذه القرى .

قلت : لنقفل الحوار .

قال : لنقفل الحوار !

قلت : ولكن عليك ان تكون أكثر عدلا ، انت تقاسمني الحزن ، فيجب عليك ان تقاسمني الفرح .

قال : سأقاسمك الفرح .

يومها . . ولم يكن يومها تماماً . . قال الكثير .

قلت : وما الذي يجعلك فَرِحاً .

قال : أنا لم أحـدثها بشيء . . ولكنني أحسست أنها تـوافقني ، وأنني اوافقها ايضاً ، وهذا يحدث معي للمرة الاولى .

قلت : هذه إهانة .

قال : لا . . فهناك أُناس يفهمونك أكثر من نفسك .

قلت : إذن ليست إهانة . . ولكن ما الذي حدث ؟

يومها . . ولم يكن يومها تمامـاً . . قال الكثير :

ـ في تلك المسافة المحاصرة بين مخفر الشرطة وبيته الأمير . . المسـاحة الوحيدة التي تجمع كل من في هذا البر ، انتشر سوق السبت .

كان ابو محمد يتلفتُ . . يدور بين صناديق الخضار . . ويطيل النظرَ الى حبات البرتقال التي استقرتْ تحت أشعة الشمس ، عشراتٍ من الشموس الصغيرة الطيبة ، اقتربتْ يده . . مرتجفة متعبة بعـروقها الفـارّة من حنطة الجلد . . وسنوات الكد . . ولامستْ الشموس .

ثم عادت مطعونةً .

ـ لعلها من هناك . . لعلها من هناك !

هز أبو محمد رأسه . . لم يقل شيئاً ، رفع عينيه ، اصـطدمتْ بعينيَّ ، فوجئتُ . . لاحظ ارتباكي ولكنني بعد لحظات كنت قادراً على التشكل من جديد .

هززنا رأسينا . . كاثنين انهيا حواراً طويلاً بالاتفاق .

وحين تحرك ، كنتُ الى جانبه ، مشى ، فمشيتُ ، لم نتحدث الى أن توقفنا أمام غرفة صغيرة .

نادى . . يا فاطمة . .

انفتح الباب . . هبتْ عاصفة . . كأنها امرأة . . لم تغادر كهفها منذ الف عام ، ولكن في الداخل كانت العاصفة تهدأ . . ويستعيد الشجرُ بعض خضرته .

لم يجرؤ أحد قبل ذلك على إدخال عازب الى بيته ، هكذا كانت قوانين البرّ ، وتقاليده ، ولكن أبا محمد . . استدار وصلى صلاة الظهر .

شي غريب يحدث . . نتحدث دون ان نتفوه بكلمة ، لذلك عليك الا تسألني الحديث بلغة فجة دائماً .

أتدري . . كنتُ بحاجة الى غصن ما يسندني ، أو اطار يجمعني . . ويحميني من التبعثر . . كان يمكن أن يكون هذا الغصن انت . . وكان يمكن ان يكون أبا محمد . .

جاءت فاطمة بالشاي . . شربنا . . في لحظات قليلة تكسرتْ الوحشةُ . . وما بيننا نَمتْ أزهار الألفة .

نظرتُ الى وجهها ، كان طيباً اكثر مما تتصور ، هادئاً اكثر مما تتصور ومعذباً .

صرختُ : هذه أنا !

التفتَ أبو محمد . . إبتسم ثم ضحك حتى اخضرتْ الارض .

أما تلك الغرفة الصغيرة . . فقد غادرتها بصمت .

كلمة . . كلمتان . . عكرتا صفو الحوار ، عاديتان . . بليدتان ، كل ما عداهما كان حاراً . . مشرقاً .

تساءلتُ . . أتدري . . لقد تساءلتُ فعلاً ، هل تستطيع فاطمة أن تخرجني من هنا . وكان العالم اشبه ببئر مظلمة أو قفص .

وتساءلتْ هي . . هل يستطيع هذا الغريب أن يخرجني من هنا ؟

طائران في قفص . . يبحثان عن الحرية ، كل في الاخر !

في ذلك الصباح . . ولم يكن الصباح تماماً قلت : هذه أحلام يا فتى .

قال : أنتَ جاهل كعادتك ، لم يكن الامر كما تتصور ، كل ما في الأمر انني أحسست بأن هنالك من يفهمني دون لغة ، وأفهمه بنفس الطريقة ، كان يمكن أن يكون ذلك الشخص انت .

كان يمكن أن يكون . واضاف :

لم أعد احتمل إراقة الايام في اللتّ والعجن .

قلت : هذه إهانة .

قال : إهانة لمن ؟!!

أتعرف . . لم أكن بحاجة الى ان التقي فاطمة مرة أخرى . . لم اكن بحاجة لان أراها ثانية ، في هذا البر الواسع الضيق . . المتخم بالنفط والسل ، كنتُ أبحث عنها ، عنكَ ، ولكنني وجدتها قبل ان أجدك .

ولكن . . ها نحن . . طائران في قفص يبحثان عن الحرية . . كل في الآخر .

ـ اذن ؟

* أظن ان هنالك جمرة ما في جبيني . . لستُ على ما يرام .

فتش الاستاذ محمد عن مخرج ، كأنه جدار الأيام يرتفع . . والشمس تهبط حتى تلامس الارض ، الخفافيش تدور في الغرفة ، والسيول تداهم الكائنات وسفوح الجبال .

قلت : لقد كان حلماً .

قال : أنت لم تعد قادراً حتى على الحلم . . لذلك أنتَ لا تعرفه !

قلت : أكان يجب ان ترتطم بكل هذه الجدران حتى تصحو ؟

قال : لا . . لم يكن يلزمني غير العيش معك !

قلت : لماذا لا ترحل ؟

قال : لم أجرؤ بعد على ذلك .

ولكنه رحل . .

أما فاطمة . . فقد طرقت صينية الشاي . . فتناثر الزجاج حاداً . . لامعاً . . من الصعب ان تجمّعه من بين الرمال . .

صرخَ الاستاذ محمد : لقد آنكسرتُ .

عاد أبو محمد . . فتحَ الباب .

* ماذا حدث ؟

ـ لا شيء . . لا شيء يا ابي .

جثتْ على الارض . . وبأصابعها الدقيقة . . التي ما لبثْ ان غرقتْ في الدماء . . بدأت تلملم حطامها .

وفي الساحة الممتدة من مخفر الشرطة الى بيت الامير . . كان أبو محمد يضرب الرمل بقدميه فتضربه الظهيرةُ بوحشتها .

كان يأتي
ومن أينَ
لا اعرفُ الان .
لكنهُ كان يأتي
ينقرُ الخشبَ المتشققَ
أدعوهُ
كنْ أيها الطيرُ صدري

وموتي
واذهب الى آخرِ السنواتِ
حصادِ الاماكنِ
والناسِ
وارجعْ
وخَبِّر دمي
أن هذي الخطى لم تكن بدء موتي
كان يأتي
ومن أينَ
لا أعرفُ الانَ
لكنه كان يأتي
مرةً فاجأوه على غصن قلبي
وكان صغيراً
صغيراً
صغير .
وإذ أمسكوا بجناحيه
ـ صحتُ :
ـ وفي الروحِ جرحٌ ـ
دعوني أطير ! .

انه الليل . . مرة أخرى يجيء ، الكثير من الكائناتِ تنتظر غموضَهُ ، لتستردّ توحشها . وفاطمة . . فاطمة أيضاً تبحث عن تَفتّحه ، لكي تدخل اللانهاية ، صاعدةً من السهول المحاصرة ، داخلةً الحضور اليانع مخلِّفةً ظلمات التلاشي .

تلك سبت شمران .

رئةُ الصحراء المطعونة بالحُمّى . . وعصافير الدم الجائعة .

تلك سبت شمران .

فاتحة الغياب . . وساعد السلّ . . وقبضة الرمال التي تسقط من مجاهل الروح على نحول الجسد .

غابة الطين
وشجر الصوان
حرائق الذاكرة
وأصابع الحجر

ولكنه زمن هائل . . ذاك انتصب بين فَراشة الحلم ونار الواقع ، وتلكَ التي سألتك ذاتَ يوم :

ـ لماذا تشبه الاطفال الى هذا الحد ؟ لم تعد هي .

قلت يومها : لأنني لا اعتـذر للحديقة حين أقطف أجمل أزهارها !

لا أعتـذر للارض حين أعدو فوق صدرها .

ولا أعتـذر للشمس حين أقطعها .

فبدا ذلك مشهداً مسرحياً غاية في الأناقة .

ولعلها ابتسمتْ . . حتى نسيت جدرانها . . وخطوات زمنها الوحشيّ الزاحفة على قسماتها .

لعلها ابتسمت حتى انهمر العالم من شرفة الضوء نوافذَ وجدائل .

ولكن الـوردةَ التي توجتْ صـدرَها في بـراري الحمى قمراً ، كسـرتْ قلبها .

قلت : يا فاطمة . . هذا عامك الثاني . . عامك الثاني هنا . . لماذا ؟

إرتعش نهداها الصغيران ، تراجعت ، وكأن طعنةً شقتْ حلمها .

ـ لماذا يا فاطمة ؟

فاجأها السؤال . . مرة ثانية فاجأها . . لم تُجبْ .

إرتعش جسـدها ، ثم تجمَّـعَ في عري الحقيقـة ، الذي لم يكن يسـتر روحها .

ـ يا فاطمة . . البحر أزرق ، الا يغريك ذلك ، والسماء زرقـاء ، الا يغريك ذلك ، هل تركضين الى البحر فنعبره ، إلى السماء فنثقبها .

. . . ولكن الصبية التي حمَّـلْـتَها الحدائق ، فاجـأها إعصار الغياب ، كأنك الحلم . . لا . . لا . . . لا . . كأنك الواقع .

الفتاةُ الصغيرةُ

قالت لعصفورةِ الموجِ إني جناحك .

قالت لظلِّ المكان المقيدِ

إني جناحك

قالت للونِ السماءِ .

لأغنيةِ الماءِ

إني جناحك

قالتْ

وقالتْ

ولكنها حين هبَّ البكاءُ

ونارُ الهجير

سقطتْ داميةْ

قبل أن تستردَ الصدى

أو تطير .

أي نافذة رفعتها الشمس قد كُسرتْ فيكَ ، أي مطرقة هشمتْ أضلاعك ، فغدوتَ بلا فرح .

ـ تعبتُ يا فاطمة . . ولم أكن ذلك الطائر الذي يغني أغنية حين يختار الموت ، كنت أُنشدها دائماً للحياة .

ـ كأنك الحلم . . لا . . لا . . كأنك الواقع .

كأنك مثلهم .

قلت : كيف ؟

ـ لم أعدْ أحتمل خشونة الأيدي ، ولا نعومتها ، بين القنفذ والافعى

يُعتصرُ جسدي ، كل ما في يدي من مال يستعبدني ، وقد قرأتَ ذاتَ يوم بأنه يحررني ، قرأتُ انه يحررني يا محمد .

وأبي . . ذلك الطيب الذي قال يوماً : تجوع الحرّةُ ولا تأكل بثديها . . أكلَ بثدييَّ .

قلت : «كلنا جنسٌ واحد في هذه الصحراء ، تختفي الانوثة والرجولة» .

دارتْ الشمس في شوارع السبت ، باحثة عن القلاع التي لم تزل منتصبة ، غادرتها أصواتُ الطلقات ، ولكن الحربَ مشتعلة بين قمة الجبل والسفح ، بين الجوع وعود الذرة ، بين سيل الماء والسلّ ، بين القبيلة والقبيلة ، بين المال وما يفترض ان يؤمنه من طمأنينة .

وفاطمة . . التي لم تعتد غيابك ، أشرعتْ باب غرفتها الخشبي وحجارة العتبة . . وانتظرت .

تلك التي لم تعتد الصبر ، انتظرتْ ، ثم ما لبثْ أن كسرت الحذرَ وسألت : يا أبي . . لم يعد الأستاذ محمد يزورنا .

ولم يكن يلزمها غير بعض الجرأة ، ـ ذلك المال الذي لم يمنحني الحرية . . عليه أن يمنحني الجرأة .

ـ كلمتان كستا شفتيه بالدم . .

: لعلها الحُمَّى يا فاطمة .

لعلها الحمى .

ـ يا فاطمة الليل يشربُ آخر ما تبقى من ضوء البرية ، والذئابُ التي حبست أجسادها في الكهوف المظلمة ، بدأت باطلاق عوائها وعيونها المتقدة ، فادخلي البيت .

تجمعت فاطمة في ركن الغرفة المظلم ، بعيداً عن الفانوس ، بعيداً عن

رعشة الضوء الشاحب ، ادارتّ عينيها في المكان دون ان تحرك رأسها ، فجأة انتصبتْ واقفة ، حاولتْ أن تصل النافذةَ .

النوافذُ عالية هنا دائماً . . كنوافذ السجون !

أيّة مصادفة هذه التي تَكسرُ الصمتَ بصرخة الفجيعة ؟ كنوافذِ السجون ؟! .

مدت عنقها ، أوشك رأسها ان يغادر كتفيها ، أما أصابع قدميها فأوشكتْ أن تدفع الكرةَ الارضية في هوة الابد .

والأستاذ محمد : لم يعد يُرى ، سواء كان خارجاً من العتمة ، أو داخلاً فيها .

زحفَ الحصى . . وأشجار الصبار . . وأطبقتِ آلسماء على الارض ، والأيدي التي انغرزت في لحمها الطري . . بدأت تلامس روحها وتعتصرها .

ـ هل تدري ما الذي يعنيه العيش هنا ؟

ـ . . . !

ـ منذ ان خطوتُ فوق أرض جدة . . أدركتُ كلّ شيء . . لا مكان هنا للحلم . . لا مكان هنا للواقع ، . . لا مكان هنا لغير الحُمّى ، والحمى تحصد الروح . . تسكن الشجرة المتيبسة . . وحقول الذرة . . تسكن الماء وتسكن الهواء ، والحمى هنا : الغياب . . وليست الناموسة ، أتدري . . القنفذة ليست القضية . . قد تكون في أكثر المدن بريقاً في هذه الصحراء . . ولكن لا شيء سيتغيّر . . قد تكون في مدينة أخرى سكنتها ، أو مدينة أخرى لم ترها بعد . كأنه زمن الحمى ، وهذه طعنة الغياب . . تكتشف انك على حافة العالم تنتبذ الوحشة ، وتأنس الذئب وبنات آوى .

كأن القنفذة تلك الطلقة التي ثقبت الاغفاءة ، فبدأ الحلم واقعاً الى هذا الحد . . متيبساً الى هذا الحد .

في الليلة التالية ، حين امتد غيابك ، ليلتقي بغيابها ، كانت الارض أضيق من خطوتها ، تسللتْ بشعرها الأسود الذي لا يطلق خيوله الآ في الليل ، تسللت بقسماتها الواهنة ، وبشفتها الراجفة ، وبشوب نومها الأبيض ، حتى وصلت الى الباب . لم تعد تحتمل أكثر من ذلك .

ـ يا فاطمة . . إلى أين ؟

الى أين يا فاطمة ؟

فاجأها الصوتُ . . حاداً . . قاسياً . . ولم يكد يحاصرها . . حتى كانت الغرفة الحجرية مفتوحة على الدنيا .

ـ أركضي صرخت . . وكأنها تسوق قطعان خيل أقعدها الموتُ . . اركضي . . لكِ أن تَري العالم ، وان يغطي شعرك كل جبال الأرض . . اركضي .

في البداية تعثرت . . تعثرَ الأبيض . . وصهلتْ خيول الألم التي احتمتْ بشعرها .

اركضي يا فاطمة . .

توقفي . . صرخ ابو محمد ، فاهتزتْ النوافذُ المقفلة في وجه الحمى ، والليالي المقفرة .

اركضي . .

بين السوق وبين بيت الامير . . عبرتْ . . يتابعها ظلها الفقير .

صرختْ : أين ثريبان ؟

ـ هنالك في الجنوب .

ـ ولكنه اتى من هنا .

ـ هنالك في الشرق .

ولكنه أتى منْ هنا .

ـ هنالك في الغربِ .

ـ ولكنه أتى من هنا .

ـ هنالكَ في الشمال .

ـ ولكنه أتى من هنا .

وهل ثمة جهات غير هذه . . إركضي يا فاطمة . . كانت تلهث فتتماوج الأرض تحت قدميها وتلهث معها . وصلتْ سفحَ الجبل . . إصعدي . .

كان الليل مغلقاً ، والجبل قطعة منه ، صعدتْ ، كأنها تتسلق جوف الظلمات . تعثري ما شئت ولكن عليك ان تنتصبي من جديد .

كان صراخ أبيها قد تحول الى مئات الصرخات التي تسبقها . . فترتد عن قمم الجبال . . والصخور الحادة . . ثم ترتطم بصدرها من جديد .

كأنهم أمامها

كأنهم أمامها.

توقفتْ . . أوشكتْ أن تركض في الاتجاه المعاكس . . عائدةً . . توقفتْ . مئات من الكشافات اختلطتْ بأعين الذئاب والثعالب مئات من الذئاب ، مئات من البشر .

اركضي .

فاضَ الدمُ من أصابعها الصغيرة . . غرست أظافرها في الصوان . . في جدران الليل الصلدة . . فهوى أكثر من نجم .

اركضي يا فاطمة .

أيتها الخطوات الكافرة . . اشتدي .

أدركتها العيون الضوئية . . الصفراء . . والحمراء . . وكانت تجلس . . وبيديها تحفر جدار العتمةِ الذي يسد طريقها . . وحولها كانت

الوجوه تختفي ثم تظهر ، تتراقص وتتغير كالدوامات : وجه ابيها ، وجه جابر ، وجه أبي عبد الرحمن ، ووجوه فرّاشي مدرسةِ الاولاد ، ووجه فرّاشة مدرسة البنات .

وكلهم يحدقون بصمتٍ .

تصبب الفزع من حنطتها ، اتقدت عيناها ، لقد أدركوها هنالك ، أمام بوابة الفجر ، فأعادوها ، بثوب أبيض .. لم يكن رايتها .. ولم يكن روحها .

حين عادوا بها
لم تعد فاطمة
انتشرت في الجبال
كوكبا وسؤالاً .
والذين استراحوا
حين القوا على روحها شوكَهمْ
غسلتْ ظلَّهم
من عروق يديها
فلم يبق الاّ سِواك

مخيف ذلك الذي حدث ، ضارٍ ، ومحتشد بدبيب الموت .

ضاقتْ القرية . . ضاق الضوء . . واتسع الظل . . حلقتْ طيور الدم . . انتفضت الروح انتفاضتها القاسية ، بين جمر الحُمّى وصقيع الاطراف .

لم تعد الغرفة الحجرية أكثر من أسئلة غامضة حول موت واضح .

. . لم يفكر أحد منهم باجتياز العتبة ، والاّ لكان اجتازها ، العيون تترصد ، والذين رأوا فاطمة بثوب نومها الابيض ، يقسمون أنهم رأوها عارية تماماً كما ولدتها أمها .

ـ ان لوثة أصابت عقلها .

ـ لا . . يقال انها كانت على موعد مع أحد المدرسين ، الاّ ان أباها استطاع ان يضبطها متلبسةً ، فلم تجد أمامها الا الفرار .

ـ لو امسكتها عاريةً . . لعريتها من جلدها أيضاً . . وفعلتها .

ـ المدرسون لا يختلفون عنا في النظرة الى شرف المرأة ! .

ـ أنتَ . . أنتَ عليك أن تصمتَ . . أنتَ لا تعرفُ عن الشرف شيئاً .

ـ أنا لا اعرف يا وجه الكلب ، أنصحك الا تتناسى الوضوء هذا اليوم أيضاً حين تذهب للصلاة .

ـ هذا لا يعينك .

ـ أغرب ـ اغرب قبل أن أترك هذا « العطيف » يأكل رأسك الفارغ .

ـ لا يا جماعة أنتم اخوان .

سحبتْ الشمس ضوءها عنهم ، فاعتمت الساحة القريبة من المسجد ، وهكذا كان النهار . . نصفه لليل .

عادت القرية لتجرّ أبناءها ، محاولة ان تتفادى طعنة الظهيرة السرية التي غالباً ما تستقر هناك بين الجمجمة والعمود الفقري . أحس أبو محمد باقترابها . . تكوّم في الركن الشرقي من الغرفة ، ضاغطاً على ركبتيه بذراعينِ محمومين ، أما فاطمة فقد تكومتْ هناك بعيداً في الركن الغربيّ . . غزالةَ مكسورة . . بلا لون .

أربع اعين تائهات ، طباخة خضراء مسودة ، رمال وديعة ، فِراشانِ مبعثرانِ ، إبريقُ شاي، كؤوس متناثرة ، وباب ، باب موصد باحكام .

لم يكن أي منهما يجرؤ على أن تبدر منه التفاتة . . حركة . . وكان في الوقت متسع للبدء باحصاء دقات القلب ، او ترويض الحكايات القاسية في

الذاكرة النازفة .

تحركت بقعة الضوء في الخارج . . صعدتْ الجدار . . حاولتْ ان تدخل من تلك الكوة في الأعالي ولكنها كانت أكثر ضيقاً من أن تتسع للشمس ، وهكذا انحدرتْ حزمةٌ من الاشعة الصفراءِ على رمال الغرفة .

زمان طويل مر . . وهي تقطع تلك المسافة بين المنتصف . . وأسفل الجدار . . كأنها تقطع الصحراء .

- هل تصاب الشمس بدوار يا ابي !!؟

ثم بدأت بتسلق الكتلة الحجرية المنتصبة كآلهة وحيدة ، حتى وصلت الى منتصفها ، كم من الوقت تحتاج حتى تحطم الكوة وتخرج مبتعدة نحو بيتها . . خلف الجبال .

- لم يفتح الباب طوال اليوم . . فاطمة لم تذهب الى المدرسة . . وأبو محمد لم يصلِّ الظهر والعصر في المسجد كعادته ، هل أدق بابهم يا أبا عبد الرحمن .

- اتركيهم . . ما حدث في الليلة الماضية لم نسمع بمثله :

إمرأة تخرج عند منتصف الليل . . بثوب ابيض . . وقدمين عاريتين . . لو لم نصلْ إليها في الوقت المناسب لأكلتها الضباع ، او نهشتها الأفاعي ، أتركيهم يا ام عبد الرحمن ، اتركيهم .

غادر أبو عبد الرحمن ساحة البيت وهو يعتصر لحيته البيضاء ، ويقلب عينيه في السماء :

امرأة في منتصف الليل . . بثوب أبيض وقدمين عاريتين . . لم نسمع بذلك من قبل .

واختفى .

انتظرت ام عبد الرحمن ، لم تفارق عيناها الباب الخشبي . . وحين حل الـظلام . . انتظرت شعـاعاً من الضـوء يتسلل من شقوق البـاب ، وطال انتظارها . .

طرقتْ الباب . . لم تكن قادرة على ان تصبر أكثر من ذلك .

ـ يا ابا محمد . . يا فاطمة . . يا فاطمة .

في البداية جاء صوت ام عبد الرحمن خجلا . . كأنها تخشى ان تخدش هذا الصمت الفجائعي الذي يلف المكان ، طـرقتْ الباب مـرة ثانيـةً . . ثالثةً . . وحين عاد أبو عبد الرحمن بادرته قائلة . .

: لا تقل لي انهما غير قادرين على نطق كلمة واحدة . . لا تقل لي .

: يا فاطمة . . يا أبا محمد .

نجمتي انكسرت
ويدي دامية
خطوتي إنفجرتْ
حدقوا . .
هاويةْ
. . هاويةْ

إهتزت فاطمة حدقت في السقف برعب كما لو ان الغرفة تهوي ببطء ، وصلتها الطرقات ، فأخرجتها من غيبوبة الكابوس ، وزرعتها في ذلك الذي ما زالت تركض هاربة منه . انسحبت مبتعدة عن الركن الغربيّ . . دون ان تتوقف عيناها عن التحديق ، دون ان تستطيع لجم نهر الرعب .

الذهول يفترش اللحظات ، رؤوس الاصابع .

ـ يا فاطمة . .

وفاطمة تـزحف بعيداً عن الحـائط ، وكأن الـطَّرقات تخـرج من قلب

الحجارة . . وتهاجمها .

. . فجأة اصطدمتْ بجسد ، كانت قد وصلت الى الزاوية الشرقية من الغرفة . . صرختْ . . كما لو أنها فوجئت بأن احداً من الاحياء يشاركها هذه الغرفة . . هذا القبر منذ زمن بعيد دون علمها .

أما ابو محمد . . فقد اخترقته الصرخة ، اهتز ، اقتربتْ اصابعه تتحسس الصوت مرتعشةً ، وفي الطرف الآخر من الليل كان الجسد يبتعد ، عائداً الى ركنه .

ـ لا . . لم يكن هو . . بل انه هو .

لا . . ليس هو . . ذلك الذي خرج علي من زوايا السوق بأسئلته ليس محمد . . وللحظة . . أحستْ فاطمة انه كان يتسلق السفح الاخر من الجبل .

ـ السفح الآخر ؟ . .

تذكرتْ . .

ـ لا

وبدا ذلك أبعد من حادثة لم يمر عليها أكثر من اثنتي عشرة ساعة ، بدا ذلك أبعد من حلم . . وأقرب من كابوس .

كأن الحكاية ابتدأت من ذلك اليومِ حين اتاك أو حين هزَّ كتفيك . . فانزلقت العباءة . . والدمعة . . لعل الحُمّى أكلته فلم يعد هو ، ولعله كان يصعد السفحَ الآخر من الجبل ؟ ولعلهم . . لعلهم أعادوه بأيديهم القاسية ، بعد ان استعانوا بالذئاب في ملاحقته . ولعله هناك . . هناك .

طائران في قفصٍ يبحث كلّ عن حريته في الآخر .

ما زال في الذاكرة بعض الدم .

وحيدة . . أجل وحيدة . . الى تلك الدرجة التي يمكن فيها أن تنادي : يا أبي . ولكنها لم تستطع .

في ذلك الصباح . . عاد مبكراً على غير عادته . . لم يتحدث . . عبثاً حاولت ان تستنطقه . . أي سر ذلك الذي تخاف فضّه يا أبي .

ولكنه تحدث في النهاية .

ـ عبثاً أحاول ان أجعل من هذا الرمل أرضاً .

ـ هي الارض اذن .

هبتْ الرياحُ الساخنة . . فاحرقتْ الخضرةَ . . وتبعثر النوار .

ـ هي غارةُ الريح الازلية يا فاطمة ، التي لم تمكِّن هذا البر من أن يجمع زهرة واحدة طوال مئات السنين . . هي غارة الريح .

ـ لم تقهرني الريح . . لم يقهرني الظمأ في أي يوم مضى . . سأعود . . وأبدأ من جديد .

وقبل ان تقول فاطمة شيئاً ابتعد .

. . طرق باب أبي عبد الرحمن . .

: أريد الجاموس .

ـ الآن ؟

ـ أجل الآن .

ابتعدت ام عبد الرحمن بسنواتها التي حطت في برٍّ الاربعين ، ولكن الجاموس الذي جلس يجتر أوراق الذرة اليابسة لم يتحرك ، نَهَرَهُ أبو محمد . . لكزه . . ولكنه واصل عملية اجتراره ، متجاهلاً وجوده تماماً .

ـ ستقتل الجاموس يا أبا محمد .

ـ بل هو الذي سيقتلني .

أمسك أبو محمد الجاموس من قرنيه بقوة ، أوشك أن يقلبه ، قبل ان يقف الجاموس بتثاقل واضح . وبتثاقل أخذ يدب ، إلى ان وصل الباب ، حدق في السماء . . ثم خطا خطوةً أُخرى أتاحتْ له رؤيةَ الدنيا بوضوح أكثر ، كان رأسه خارج الدارِ ، حدق في كلا الجانبين من الشارع ثم لوى عنقه باتجاه الداخل .

لكزه أبو محمد . .

حملقَ الجاموس في الوجه الذي يتصبب عرقاً . . ويتصبب خيبةً وتصميماً . . ثم سار باتجاه الحقل مندهشاً ، غير قادر على أن يجمع سؤاله ، سار باتجاه الحقل ، قاطعاً فلوات اللهب .

عادت أُم عبد الرحمن طرقت الباب . . همستْ فاطمة . . حتى متي يا أبي . . فخرج صوتها مجرحاً محتشداً بملايين الأسئلة .

ـ حتى متى يا أبي ؟

كانت ظهيرة اليوم التالي أكثر التصاقاً بالاختناق .

الباب يُطرق . .

حتى متى يا أبي ؟

حتى متى يا ابي .

هذا السؤال الصعب ، الذي لم يستطع الاجابة عليه طوال عمره : حتى متى ترحل ؟ حتى متى تتكشر ؟ حتى متى تفرُّ من خطواتك المدنُ ؟ حتى متى تعيش موتك حياً ؟ حتى متى . . ؟

هذا السؤال هو الصعب يا فاطمة ، حين يخرج من فمك الصغير ، من عينيك الممتلئتين بالغربة والحمى ، من رؤوس أصابعك التي تبحث عن

إجابة شافية وهي تخدش صخور الجدران .

ـ حتى متى يا ابي ؟

تحسسَ أبو محمد قدميه فوجدهما مكانهما . . إنتصب . . لحظةً . . انفرج الباب ، مُسفراً عن شبح متعب . . بلحية بيضاء . . وبكوفية استقرت فوق رأسه بفوضى .

ـ حتى . . متى . . يا ابي ؟

تابعه السؤال . .

كان ابو محمد يقطع الطريق الى دار الامارة ، هنا ينتهي العالم ، هنا يبدأ ، لن أواصل هذا الركض .

ـ كل شيء سينتهي اليوم ونعود يا فاطمة ، كل شيء سينتهي اليوم .

إمتدت يد ناعمةً باتجاه صدرها ، يد أكثر خشونة ، عشرات الأيدي امتدت ولم يكن غير يد ام عبد الرحمن التي مسدت شعرها ، وجهها .

اندفعت أسئلتها أكثر حدّة . . ثم ما لبثت ان تراجعت الاسئلة بحروفها . . تراجعت وازدحمت جمجمةفاطمة . . لم تعد تتسع .

حتى متى يا ابي ؟

كان يمكن ان يسمع تلك الصرخة كل سكان الأرض لو أنصتوا لحظة .

ثم انفجرت فاطمة . . إنفجارها الكبير . . فليسمعوه .

تناثر البيت . . الجدران . . السقف .

يداها . . أصابعها . . جمجمتها الصغيرة . . شعرها الكستنائيّ . . سنواتها الاثنتان والعشرون . . خطواتها . . وتناثر ظلّها .

كل شيء ارتفع في الهواء . . ثم هوى ببطء باتجاه الارض . . باتجاه

المطار . . البيوت المسودّة . . والغربان التي كانت تحط في تلك اللحظة فوق سور المقبرة الترابي .

كان الناس يسيرون . . كأن شيئاً لم يحدث . . وأجزاء فاطمة كل منها يأخذ مكانه فوق الحجارة والرمال الملتهبة .

لقد انفجرت وكأنها محشوة بالديناميت .

في حين أبصر غرابٌ حنجرة آدمية تسقط من الفضاء . . ولم تزل فيها آثار صرخة محترقة ، وقعت الحنجرة بجانبه . . إرتعش . . حاول ان يفر . . انعقد جناحاه . . ثم حاول دون ان تفارق عيناه الحنجرة . .

حاول . . حاول . . حتى ابتعد قليلاً ، فارتد له جناحاه فطار .

أما ابو محمد . . فقد كان يغادر دار الامارة صارخاً . .

وليكن سأنزل للقنفذة . . وما ان يصبح جواز السفر في يدي حتى أغادر هذا الرمل .

ولكنه كان قد تأخر .

بين هذا الركام من الأيام ، هذا الركام من الفصـول التي تتداخـل ، فيجمعها خيط من اللهب ، وفي فوضى الحطام ، حطام اللحظات ، وحطام التوحد الذي يطوق عنقك بقلادة العزلة ، كـان البحث عن واقع يـوصل الارض بقدميك ، أو يوصل الكابوس بشيء يشبه الحلم .

هو مضى ، لست تدري الان كيف ، هل اخترق الجدار ، أم الباب المغلق من الداخل أم من معبر الخفافيش اليك ، والى شحوب القنديل لعله هنا ؟

حدقت في كل ما في الغرفة من أشياء ، ونسيتَ أن تحدق في نفسك بحثتَ في رؤ وس الجبال ، في السهول ، وبين لحوم الجمال التي قطّعها السيل أكثر من مرة ، انطلقتَ في البرِّ كابنة سعد ، وتـابعتَ دورانَ الاجنحـة المحلقـة للصقور ، ولكَم تمنيتَ ان تكون لك حدة ابصـارها ، او أجنحتهـا ، أيها الطائر الارضيّ .

ناديتَ ، حتى اختلط صوتك بالرعد ، وحفرتَ حتى اختلط عرقك بما تبقى في اندفاع الينابيع . . ولا احد .

المدير لم يسأل ، وجابر رئيس الشرطة . . بعد ان جاء ليقبض عليك ، عدل عن ذلك ولم يعد أيضاً ، والحـاج سعود ينـظر اليك بـريبة ويـطالبك بالذهاب الى الطبيب . هو يشبهك ، أنت متأكد من هـذا ، وتستطيـع أن

تقسم على ذلك : لون العينين ، الحنطة ، الطول ، الشعر ، والذكريات .

وهم يعودون بدراجاتهم اليك ، يحملون الف ريال ويمضون ، هي حكايةٌ تتكرر ، يحضرون كلما توفي مدرس مغترب ، يطرقون الابواب ، وغالباً ما يأتون في الليل ، فالمسافات التي يقطعونها طويلة ، والمدى موقوت ، وعلى وشك الانفجار دائماً ، والشظايا ذئاب وخفافيش ، عصافير « صعو » جائعة ، غربان ونمل أبيض .

بعينيك المتعبتين ، كنتَ ترقب حركة العتمة . هي حركة العتمة ، أم حركة الضوء ؟ غامضة ، ناعمة ، دقائق متحركة من السواد ، تغرق فيها ، ربما كنتَ تلمح شيئاً في داخلها يتحرك ، شيئاً يشبه الوضوح ، ولكنه ليس الضوء ، يشبه الضوء ولكنه ليس النهار ، يشبه النهار ولكنه ليس الشمس .

أحكمتَ الغطاء حول جسدك ، صدرك يديك قدميك ، أما رأسك فقد كان خارج مساحة الدفء في المحيط اللانهائيّ من المجهول ، الحياة في العينين ، وجمرات الدم متقدة في الجبين والبحر ينساب تحت الثياب ، موجات صغيرة وادعة ، بعد ان هدأت الزلازل في العظام والخلايا .

تذكرت فاطمة ، فأوشكت ان تظن بأنك عرفتها في ارض غير هذه الارض ، وان العباءة التي سقطت عن رأسها وكتفيها في ذلك اليوم هي هذا الليل الطويل الذي ينتصب بينك وبينها ، لعلها الليل .

بيدك المرتجفة التي اصبحتْ اكثر برودة عندما اخرجتها من تحت الغطاء حاولتَ ان تمسك بطرف الليل ، وتلقي بالعتمة بعيداً ، ولكن يديك عادتا فارغتين ، تكاد مفاصلهما أن تتحجر كالثلج ، وأن تتكسر .

قلت : يا فاطمة .

تردد الصوت موجات من الصدى مجروحةً ، وطفليةً حتى نقطة الدم الاولى . الليلةُ لا تنتهي . الليلةُ لا تنتهي وصياح الديكَة وحده الذي بدأ يرفع ستار الليل عن عينيك .

لقد حزنتَ ، والحزن ينتهي دائماً ، هو ابتعد وأنت هنا ، بحثتَ ولكن الارض انشقتْ وابتلعته ، تفسير غير معقول ، ومرعب . درتَ في الغرفة ، استلقيــت على سريره ، فبدا لك أنك كنتَ تنام هنا دائماً أقرب قليـلاً من النافذة الشمـالية حيث يهب الهـواء في الليل بـارداً ، وتهب النار في النهـار لافحةً .

أصبح شيئاً عادياً بعد ان بعثرت ثيابه باحثاً عن الالف ريال ، ان ترى ان تلك الثياب تناسبك ، ارتديتَها ، لم يكن سيغضب لو كان هنا ، على الرغم من انطفاء جمرة القرب بينكما ، هي ثلاثة قصمان وبنطالان، وثمـة بنطال وقميص على الحبل البلاستيكي الذي يمتد في الغرفة أخضر مجدولاً ، واصلاً ما بين حجارة الجدارين الشمالي والجنوبي .

إرتديتها . . ملائمة .

قلت : كان يمكن أن نكون شخصاً واحداً ، ما دامت كل هذه الاشياء تجمعنا . ولكنك لم تستطع ان تغفر للمدير أو للحاج سعود جريمتيهما ، في أنهما لم يسألا .

ودائمـــاً . . دائماً كنت ترتعد ، حين تسأل ، ماذا لو انني كنت الأستاذ محمد فعلاً . حتى جابر رئيس الشرطة ، لم تبرر له تناسيه ، أتى ذات ليلة ، ثم لم يعد . زمن هائل مر ، ارتفع حتى السماء جداراً ، ولم تعد قادراً على تجميع بعثرة الايام في هذه الصحراء الازلية ، أو تلك الاشرعة البعيدة الراحلة نحو كهوف الابدية .

: يا فاطمة .

ناديتَ . . وكم كنتَ تود أن تجيب ، أو يسفر هذا الصمتُ عن كلمة واحدة ، تعيد لرمالك الخضرة .

وحدها تعرف الاجابة . . ووحدها تعرف مأزق الاسئلة . .

ـ في ذلك الصباح . .

* اي صباح .

ـ لا أدري .

في ذلك الصباح ، لم يكن الصباح تماماً . . كانت الظهيرة .

في تلك الظهيرة.

* اية ظهيرة ؟

ـ لا أدري .

في تلك الظهيرة ، لم تكن الظهيرة تماماً ، كان المساء

في ذلك المساء .

* أي مساء . . ؟

ـ لا ادري .

في تلك . . .

توقفت على بابها ، وبيد مرتعشة ، ضغطت على أصابعها ، فانفتحت نافذة للنور في قلبك لم تكن بحاجة الى اكثر من ذلك ، الى جناح .

وفجأة تفجر كل شيء ، الاصابع ، ينابيع الجسد المالحة ، وسيول الجمر .

أنت وحدك .

والأستاذ محمد ، الأستاذ محمد ، هل كان هنا فعلاً في هذه الغرفة بين الرمل والسقف الترابي ، على بعد ثلاثة أمتار بالتحديد .

ـ لقد قاسمته كل ما في يدي ، وقاسمته روحي ، أتراه ابتعد اكثر مما أرى أم انه يصرخ الآن بصوت أضاع حنجرته ؟ .

صوَّبَ سالم الشمراني . . باتجاهها ، كانا في أعلى الغصن ، هناك في أعلى الشجرة ، الظهيرة متقدة ، وبمنقارين دقيقين ينشدان فرح المناجاة . تحت الرقبة طوق أسود ، وبقعة صفراء تحت الذنب ، حين انفجرت الرصاصة . كانت أشبه بعبث مبالغ فيه يشق ائتلافهما ، بقعة في الصدر ، حمراء ، نقطة من دم ، وبلبل يهوي من أعلى الشجرة ، هل كان الذكر أم كانت الأنثى ؟ .

في تلك اللحظة تحولت المناجاة الى أجنحة تلطم الفضاء بقوة ، وأليف مفجوع يرتفع ويهبط دونما توقف ، بين أعلى الشجرة حيث الغصن أخضر ، وصولاً الى جذعها حيث بقعة صغيرة من الدم ، صغيرة الى درجة لا تصدق ، ممتلئة بالموت حتى سفوح جبال الحجاز . نظر سالم الشمراني حول نفسه ، أوشك ان يصيح ، أن يستنجد بشيء ما يحميه من هذه الاجنحة وهذا الصوت ، ولكنه اكتشف ان البندقية لم تزل في يده ، أيها الجندي ، صوِّبْ كان البلبل الرمادي يتوقف بين لحظة وأخرى فوق غصن يكاد يلامس الارض ، دون ان يرفع عينيه عن تلك الجثة الصغيرة .

صوِّبْ يا سالم ، صوِّبْ واياك ان تخطىء لان هذا البلبل سيطاردك طوال العمر .

رصاصة اخرى ، سقط البلبل دامياً هناك قرب بقعة دم في الصدر لم تزل متقدة ، ولكن سالم مضى بعيداً ، دون ان يجروء على التقاط الجثتين الصغيرتين .

لا . . لم تعد تعرف ذلك الاتجاه الذي ستعبر منه الرصاصة باتجاهك ، الدم حار ، حارق ، ويتدفق من الجدران ، ينبع من الرمل ، من الصمت والليل ، والظلام أحمر دموي ، الأصابع . . اليد التي امتدت لتقطف الضوء ، العينان الجاحظتان والأسئلة كلها .

لا تملك اجنحة لتصفع الفضاء ، ولا انشودة فيها من الحياة أكثر مما فيها

من الموت . . وأليفك في طرق ليس لها آخر يمضي ، غامضاً ، حين تهم ان تمسك به .

واضحاً حينما تبتعد عنه قليلاً . . . خطوة أو خطوتان .

وتخوّض في دمه دون ان تراه ، وتتبعه وما ان تصله حتى يختفي فيك .

هل كنتُ مجنوناً الى هذا الحد ، ولهذا لم يعد جابر رئيس الشرطة ، واكتفى المدير بصمته اليوميّ المعتاد وتخبطه في الأخطاء الاملائية وسوق السبت ورسائله لمديرية التعليم .

كل ما حولك يهدأ، والصوت ذلك الصوت المألوف يأتي من بعيد ، تتشبث بالغطاء ، يقترب الصوت هل ما زلت تتجرع كأس الحُمّى .

ـ لا .

الصوت يعلو . . يتسلق التلة .

لا منفذ . . والارض لا تنشق . ولا السقف أيضاً .

يتوقف الهدير ، يحتل ايقاعُ الخطوات الساحةَ الترابية في الخارج ، طَرَقاتٌ على الباب .

وكحصان طاعنٍ في السن تهاجمه الذئاب من كل اتجاه ، وقفتَ درتَ حول نفسك ، بحثتَ عن مساحة أيّة مساحة ، تتسع لهذا الجسد النحيل، ولكن دون جدوى .

ومن أقصى بقاع الارض ، من أقربها من تحت قدميك فاجأك الصوت !!.

ـ إتخبا مليح أجاك الريح ، أجاك الريح ، أجاك الريح !!.

ويتراجع الصدى حتى يتلاشى ، فتصحو على انفجارات أكثر حدة ورعباً تزلزل الباب وجدران الليل وهدأة الخفافيش .

لا منفذ .

ـ من ؟

لم تكن بحاجة الى ان تسأل ، ولم يكن من الضرورة أن يجيبوا ، وأنت سألتَ وهم أجابوا .

ـ نحن .

امتدت يدك ، الكشاف قريب منك هذه المرة ، انفتحت عين الضوء ، ساطعة ، تحركت ، استطعت تجاوزَ الصحون وطنجرة الطبخ التي تدحرجت كثيراً ، ثم توقفت قرب الباب ، هدأت الطَرقات ، فخطوت خطوة باتجاه السرير ، انفجرت من جديد .

فتحتَ الباب .

خمسة كانوا .

تحركت عين الكشـاف ، وما ان أضـاءت وجه أحـدهم حتى اندفعتَ باتجاههِ تعانقه .

ـ لقد عدتَ أخيـراً . . كنت أعرف أنـك ستعود ، كنت أعـرف انك ستعود .

خلَّص جسده من بين ذراعيك .

قال ـ من الذي سيعود يا مجنون .

قلت أنت . . أنت الاستاذ محمد .

قال : الاستاذ محمد لا وجود له ، لا يوجد غيرك هنا .

حدقتَ في وجوه الآخرين ، ولما تزل دائرة الضوء تحاصر وجه أولهم .

قلت : أين وجدتموه ؟

قالوا : هذا ليس الأستاذ محمد .

فتحت الضوء في وجوههم بل هـ . . .

تجمـدتْ الكلمة فـوق شفتيك ، تيبسَ حلقـك ، كأن انفجـاراً أكـل حنجرتك ، اندفعتَ باتجاه أحدهم . .

صرخت : هذا أنت . . أنت الاستاذ محمد .

قال : لا . . أنت الاستاذ محمد فقط .

قلت : لعلها مرايا ، وباصابعك تحسستَ صدورهم ، ليست مرايا . . ولكنهم انا . .

الشعر . .
لون العينين
الطول
النظرات المتعبة
فارتعبت

بصوت واحدٍ قالوا : لقد أعددنا كل شيء . . النقود ، ، التابوت ، ولم يبق سوى شيء واحد . . جثتك .

ـ جثتي ؟!

قالوا : لننهي هذا التجوال .

أوشكت ان تقول أنك لست هو . . ولكنك ابتلعت الجملة في اللحظة الاخيرة .

قلت : ولكنني لم أمُتْ .

قالوا : انت تقول ذلك ألم تبكي حين غادرناك في المرة الاولى .

قلت : كيف عرفتم .

لم يجيبوا . .

ـ ألم تدفع الف ريال مساهمة منك في نفقات دفنك ؟

ـ دفعتها حتى لا أراكم ثانية .

ولكنك دفعتها . أنت بكيت في المرة الاولى ، ودفعت في المرة الثانية ، ألا ترى انك ميت فعلا ، أنت تعرف ، ما الذي يضيرك الآن حين تأخذ جثتك .

ـ ولكنني لم أمتْ .

ـ قلنا لك ، أنت الذي تقول ذلك .

اقتربوا منك ، رافعين أكفهم يتقون الضوء الذي يثقب عيونهم .

عند ذلك ، بدا البر واسعاً وقابلاً لاستيعاب خطواتك ، وانتفضَ يدعوك كي تدخل في صداه ، بانفجارك الأخير . .

في حين هبطت الدجاجة السمراء والدجاجة البيضاء والديك للتفتيش عن قوت اليوم . .

كانوا يركضون خلفك ، بعد أن خلّفوا دراجاتهم ، خمسة ظلال سوداء ، لجسدك المشتعل بطعنات الحُمّى ، وهناك ، توقفتَ تعثرتَ بشيء ما ، يشبهك .

خصلة من شعر .

جديلة كاملة .

يد

حنجرة .

وفي وسط الساحة كان ابو محمد يدور حول جسد ابنته منذ ظهيرة

الأمس ، بنظرة جامدة ويدين مرتجفتين ، وخطوات مكسورة ، والقرية تمضي باتجاه الطرقات ، والمراعي الحجرية ، كعادتها ، بلا عينين .

أمسكت به هززته ، يا ابا محمد ، أين فاطمة .

أشار الى الارض . . واستمر في دورانه .

اتضح الموتُ فجأةً أمامك ، نظرتَ خلفك كانوا يركضون ، أطلت الشمس من فوق قمم جبال الحجاز ، واهنة فانكشفت القرية أمامك .

مرايا ، مرايا ، مرايا .

هذه ليست سبت شمران ، هذه غابة المرايا ، المدرسون يخترقون الطرقات . . أم انك انت التي تخترقها وحدك في هذه الساعة الميتة .

مرايا . . مرايا مرايا .

ركضتَ باتجاه أحدهم ، امسكت به .

قلت : ها أنت اخيراً . . ها أنت تعود .

أبعد يدكَ عن كتفه . . ومضى

ركضت باتجاه آخر ، كان قادماً من ساحة السوق الترابية .

قلت : ها أنت اخيراً . . ها انت تعود .

ـ هل جننتَ يا أستاذ محمد . . من الذي عاد .

قلت : من الذي عاد ؟ أنت . أنا . .

ومضى . .

صرختَ : كلكم غائبون ، كلكم غائبون .

أما الخمسة الذين يطاردونك فلم تعد قادراً على أن تميزهم بين هذا العدد

الماثل من الوجوه والقامات المتشابهة ، التي لا تُفرقها عن بعضها .

ومن بين كل الوجوه كانوا يطلون . . يراقبونك بصمت . .

أمسكتَ بيد ابي محمد ، صرختَ ، إمضِ الى القنفذة ، هناك الى الساحل ، انتزع جواز سفرك وارحل ، إبتعدْ ، أنتَ تستطيع ان تفعل ذلك الآن .

ـ وانت ؟ قال ابو محمد وكأنه يعود من غيبوبة طويلة .

قلت: سيقولون إذهب الى الجحيم، قبل أن ينتهي العام لن تستطيع.

عيناك تتحركان بفزع ، والطلقة الثانية معدة ، لا تتوقف الآن ، إذا توقفت تسقط ، الرصاصة تترقب . . وأنت تدور .

من طرف القرية الغربي جاء جابر ، لمحتَهُ اقترب بخطواتٍ واسعة . . ماذا يريد .

قلت : إمضِ أبا محمد . . إبتعد .

قال : نرحل معاً .

أمسك بك . . انتزعت ذراعكَ من بين أصابعه وانطلقتَ تقطع البرَّ باتجاه البحر ، كيف اتسعت المسافة بين جبال الحجاز وشاطىء البحر ، كيف ضاقت .

اصطدمتَ بالموج ، عدتَ باتجاه جبال الحجاز ، ارتطمَ صدرُك بالحجارة السوداء ، ففرتْ الذئاب والثعالب ، وصرخت القرود ، إنفجر الدم ، عدتَ باتجاه البحر كحصان يحاول اجتياز حاجز .

إندفع ابو محمد خلفكَ . . ثم بدأ يركض الى جانبك ، وهناك فوقَ رمال الشاطىء ، كان الموج يهتز ، يتكسر فوق صدريكما ، ويعود مسنوناً من جديد .

عدتما باتجاه الجبال ، ثم باتجاه البحر .

الشمس تصعد ، والبحر يعلو والجبال تعلو ، الدم يتدفق من رؤ وس الاصابع ، من عروق اليدين .

إنكسر البحر ، تراجع ، وانفتح الموج أمامكما رصاصياً .

جاءت موجة بعيدة ، فكانت أشبه بريح ، رفعتْ اطـرافَ كوفيـة أبي محمد ، وأرسلتْ شعرَكَ فوق سطح الماء ، طويلاً كليلة لا تنتهي .

وللحظةٍ . . التفتٌ خلفكَ ، كان الخمسة يعودون باتجاه « ثريبـان» ، يحملون بين أيديهم احد المدرسين ، كان يشبهك ، يشبهك تماماً ، حتى أنك لم تعرف إن كنتَ أنتَ فعلاً ، ام واحداً غيرك ، أم واحداً منهم .

## للمؤلف

- الخيول على مشارف المدينة : شعر ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ودار الشروق عمان .
- المطر في الداخل : شعر ـ المؤسسة العربية ودار الشروق .
- صباح الخير يا اطفال . . صباح الخير يـا ثورة ـ شعر للاطفال ـ المؤسسة العربية ودار الشروق .
- أناشيد الصباح : شعر ـ دار الشروق عمان .
- الحوار الاخير قبل مقتل العصفوربدقائق : شعر ـ دار الشروق عمان .
- نعمان يسترد لونه : شعر ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر .






في «براري الحُمّى» يخلق ابراهيم نصرالله جغرافية تخيلية مرعبة
تلغي التاريخ والهوية والزمن، كما تلغي ثنائية الواقع والوهم أو الحلم،
هنا لا يملك الإنسان تاريخاً شخصياً، أو هوية متميزة، بل إنه وبشكل فاجع لا يملك حتى موته
الخاص،
والفعل الوحيد الذي يكتسب دلالة حقيقية ويترك أثره على العالم
هو فعل العنف والشر والقمع، من جهة، وفعل النسيج اللغوي، من جهة أخرى،
وكما في عالم البشر، كذلك في عالم الحيوان، حيث تتشكل شريحة
وجود تمرئي العالم البشري
الذي يسحقه القهر والكبت والجوع، وهنا تجثم سلطة الرعب بأشكال متعددة فوق صدر البشر:
رعب القيم، والأبوة، والشرطة.
في «براري الحُمّى» تحتل اللغة والجغرافية مسرح الوجود:
تندفع اللغة مشكلة بنية تزامنية - بدأت الرواية العربية الجديدة
تتبعه الى بلورتها بتسارع لافت - تطغى لتنفي التاريخ،
وتتفجر اللغة أيضاً متشظية، متوترة، مجترحة تخترق الصفحات كالأسنة الم
في عالم لم يعد ممكناً للبطولة بالمعنى الذي تحمله في الرواية الكلاسيك
في هذه الرواية - الكابوس التي تعرّي العالم الذي تعيش فيه
بحدة شرسة يحتقن وعي ذو حساسية باهرة
بحمى المكان وحمى اللغة وانهيار العلاقات الانسانية، وتفيض تمزقاته ورعبه بـ
لتنسج خيوط غلالة محمومة تلف العالم برعب قاهر.

كمال



